مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٩)، العدد (٣)، ص ص ١٣٦٣-١٤١٥، (رجب ١٤٣٧هـ/ إبريل ٢٠١٦)

الخطاب السياسي للدولة الفاطمية تجاه الزعامات المحلية الشامية المعارضة من خلال رسائل العَميدي (ت سنة ٤٣٣هـ/١٠٢٤م)

د. خلود بنت محمد بن عايد الأحمدي
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد: بجامعة طيبة

ملخص البحث. تهدف هذه الدراسة إلى تلمس ورصد الإفادات التاريخية والمعلومات الوثائقية التي تضمنتها بعض رسائل العَميدي، مما صدر عن بلاط الخليفة الفاطمي، إبان تولي العَميدي لوظائفه الديوانية في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ووجهت إلى عدد من المتغلبين على الأطراف ببلاد الشام، في محاولة لثنيهم عن الخروج والاستقلال بما في أيديهم، ومعارضة هذه البيانات والإفادات بمصادر تلك الحقبة، مع ما لرسائل العَميدي من مزية المعاصرة والمشاهدة والقرب من هذه الأحداث. ومن ثم توظيفها في دراسة التاريخ.

إن هذه الرسائل الفريدة التي تنشر لأول مرة ولم ترد في أي مصدر آخر تظهر نظرة الدولة الفاطمية إلى حركات الزعماء الشاميين الخارجين على سلطتها، وتبين طريقة تعامل الدولة الفاطمية مع المعارضين لها، وما بذله الخليفة في سبيل ذلك من مراسلة واستمالة وتقرير بالإمارة لبعضهم، والإكرام بالخلع والعطايا والإقطاعات، ثم ما اتخذته الدولة حيالهم بإرسال الحملات العسكرية عندما استفحل أمرهم. كما تتناول هذه الرسائل تاريخاً للأحداث الواقعة في الجناح الشامي من دولة الفاطميين، وما تركته هذه الحروب والوقائع من تدمير للمباني وتهجير للأهالي والسكان وانعدام للأمن وانقطاع للسبل والطرق.

وخلصت الدراسة إلى تقرير أهمية رسائل العَميدي وقيمتها التاريخية، من كونها توفر مادة أولية غاية في الأهمية عن العلاقات السياسية التي جمعت بين خلفاء الفاطميين وبعض زعماء القبائل الشامية، بما يساعد في دراسة التاريخ السياسي والاجتماعي لبلاد الشام في مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

الكلمات الدالة: الخطاب السياسي، الدولة الفاطمية في بلاد الشام، القبائل الشامية، التحالف القبلي الثلاثي، رسائل العَميدي.

مدخل

دخل أدب الرسائل منذ مطلع العصر العباسي إلى جانب الفنون النثرية الأخرى المعهودة، وتوالى تطوره فيما بعد بظهور طبقة من الكتاب البلغاء ممن كانوا يتولّون كتابة الرسائل الديوانية في دواوين الدولة، مستفيدين مما يلاقونه من حظوة ومكانة عند الخلفاء ونوابهم وأرباب الدولة(١)، ونشأ ـ إلى جانب الرسائل الديوانية «الرسمية» ـ قسمٌ آخر يسمى الرسائل الإخوانية، تتضمّن تصوير عواطف الكُتّاب ومشاعرهم في موضوعات مختلفة ومتنوعة، في: المديح والهجاء والرثاء والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهنئة والاستمناح إلى غير ذلك من الموضوعات التي يرتبط بها هؤلاء الأفراد بمجالهم الاجتماعي. وكان الشعر في العهود السابقة على عصر بني العباس يؤدي هذا الدور منفرداً، حتى ظهر هذا النوع الأدبي المنثور فنما نمواً سريعاً وأخذ موقعه إلى جانب فنون النثر الأخرى، وطارت شهرة كُتّابه في الآفاق، وأصبحت نصوصهم ورسائلهم مجالاً للاستشهاد والنقل والانتساخ والتضمين(٢).

لقد وصلتنا من هذه الرسائل ـ بشقيها الديواني والإخواني ـ مجاميع متعددة لعدد من الكتاب، ينتمون إلى عصور مختلفة وأصقاع مختلفة من الدولة، أمثال: الوزير البويهي ابن العميد (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)، وأبي إسحاق الصّابي (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، والصّاحب بن عَبّاد (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)، وأبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الشيرازي (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م)، والقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) وغيرهم من أعيان الكتاب.

وإذا كانت أهمية الرسائل (الرسمية والشخصية) معلومة في جانبها الفني: الأدبي والبلاغي، لا تحتاج إلى بيان وشرح، فإن لها قيمة أخرى تتمثل في كونها مادة وثائقية عن العصر الذي كُتبت فيه، فهي، إن كانت ديوانية، تسجل وتصور بوضوح النواحي الاقتصادية والسياسية

---

(١) انظر حول تطور هذا النوع الأدبي: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي «العصر العباسي الأول»، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٨

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٩١ وما بعدها.

والعسكرية والعمرانية والنظم الإدارية في الدول وبلاط الخلفاء والحكام، وكيفية تسيير الأمور، وما توليه الدولة من عناية وتقدِّمُه على غيره من مهمات الأسباب، وهي أيضاً -إن كانت إخوانية وشخصية -تكشف جوانب مغفلة من الحياة الاجتماعية والثقافية في مجتمع تلك العصور، وتعكس - بتفاوت في المصداقية -العلاقات الاجتماعية الناظمة بين أفراد المجتمع، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة، وبعض ملامح الحياة اليومية وطرائق العيش والاسترزاق والعادات والتقاليد والألبسة والأغذية والأدوية إلى غير ذلك مما كان يُعتنى به ويُتطلَّب.

وتتجاوز قيمتها أيضاً كل ذلك بما تتضمنه من إفادات جغرافية وتاريخية رافدة للمصادر التاريخية المباشرة، فالرسائل الديوانية الصادرة من ديوان الدولة تعبر عن وجهة نظر مؤسسة الحكم تجاه الأحداث والوقائع، وكيفية التعامل معها، وهي تنقل هذه الأحداث وتصورها بدرجة كبيرة من المصداقية لما قد ينبني عليها من نتائج، وتكشف عن مدى قوة الأحداث بمقدار اعتناء الحاكم واهتمامه بمعالجة الطوارئ من الأمور، وتكشف أيضاً عن الفكر السياسي الذي تنتهجه الدولة ومدى ارتباطه بالدين (كما يظهر من رسائل العَميدي فيما يلي)، وتُظهر حالة الدولة (قوة أو ضعفاً) من خلال لغة الخطاب والتعابير الواردة فيه.

وتتضمن الرسائل أيضاً مادة ثرية عن تراجم الأعلام والشخصيات البارزة في السياسة والعلم، ويمكن تقدير مكانة بعضهم من خلال الأوصاف التي تطلق عليهم، برغم ما قد يظهر فيها من نزعة عاطفية في حالتي المدح والذم.

تركز هذه الدراسة على الخطاب السياسي الفاطمي تجاه الزعامات المحلية المعارضة في بلاد الشام من خلال رسائل أبي سعد العَميدي، من خلال عرض وتحليل أربع رسائل من رسائله، تتصل بما وقع في الشام من محاولة بعض زعماء القبائل الخروج على الفاطميين والاستقلال بما في أيديهم من النواحي، في مطلع القرن الخامس الهجري.

التعريف بالعَميدي (صاحب الرسائل)

يعدُّ أبو سعد الكاتب محمد بن أحمد بن محمد العَميدي (ت ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م)، أحد الكُتَّاب المشهورين في مصر زمن الدولة الفاطمية، وصفه

ياقوت بأنه «أديب نحوي لغوي مصنف»[٣]، وشاعر[٤]، سكن مصر، إذ يرجّح أنه من أصول خراسانية، وأنه من أحفاد أبي الفضل بن العَميد (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) وزير ركن الدولة ابن بويه[٥]، وتولى العديد من الوظائف الديوانية البارزة، فترأس ديوان الترتيب[٦] في عَهْد الخليفة الظاهر (حكم ٤١١- ٤٢٧هـ/ ١٠٢٠ - ١٠٣٥م)، وعزل عن هذه الوظيفة سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م، ثم وُلّي ديوان الإنشاء في سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م عوضاً عن ابن خيران الكاتب في عَهْد الخليفة المستنصر (٤٢٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥- ١٠٩٤م)[٧]، وهي وظيفة عالية الرتبة يتولاها الطبقة المتقدمة من بلغاء الكتاب، وكانت تلي رتبة الوزارة من حيث

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص ١٤٥، الزركلي، الأعلام، ج٥، ص ٣١٤

(٤) رجح محقق الرسائل أن الأشعار الواردة في كتابه ربما هي من نظمه لانعدام وجودها في المصادر والمجاميع الشعرية. العميدي، رسائل العميدي، مقدمة المحقق ص (ف)

(٥) الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج٤، ص٤٦٢.

(٦) اجتهد الدكتور إحسان ذنون (محقق الرسائل) في بيان طبيعة هذه الوظيفة التي لم يعتن أحد بدراستها من قبل، وخلص إلى أن ديوان الترتيب من الدواوين المهمة في النظام الإداري الفاطمي، وأن مهمة متوليه تقارب مهمة صاحب الخبر، وربما جمعت خطة الترتيب والبريد لمتولٍ واحد، وله أصحاب ترتيب في الولايات والأقاليم ينقلون له الأخبار والأحداث، ولأهمية هذا الديوان فقد ارتبط متوليه مباشرة بشخص الخليفة في التعيين والعزل، بما يعني علو مكانة من يتولاها في الهيكل الإداري عند الخليفة توفر له مزية رؤية الخليفة والاجتماع به . وربما تقديم المشورة للخليفة . وما يتبع ذلك من مخصصات مالية جزيلة وجاه وتقدم في الدولة، تثير طمع وغيرة الحسّاد. انظر العميدي: مقدمة المحقق ص (هـ. ح)

(٧) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص١٤٥، الزركلي، الأعلام ج٥، ص ٣١٤. ولكن المقريزي يذكر وفاة ابن خيران الكاتب في سنة ٤٠٢هـ . ويذكر في موضع آخر أن الذي تولى ديوان الإنشاء عوضاً عن ابن خيران هو بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسن. انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج٢، ص ٩٢، ١٢٨، وانظر عن ديوان الإنشاء في عهد الفاطميين وتطوره ووظائفه: الحباشنة، ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية ص ١٥٧

المكانة والمنزلة في العهد الفاطمي(٨)، ولم يستمر فيها طويلاً إذ توفي سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م(٩).

ويذكر العَميدي في إحدى رسائله أنه تولى للخليفة الظاهر وظيفة أخرى على درجة من الأهمية، وهي صاحب خريطة، وأنه كان يجالس الخليفة، ولم يقبل بأن يتولى وظيفة المحتسب لكونها أقل رتبة من الوظائف التي تقلدها(١٠)، وأقل رتبة من وظيفة صاحب الخريطة، الذي يقوم بحمل أوراق العَرْض من الديوان بالحضرة في رَكْب الجيش، كما يحمل صاحبها بعض الأموال لتوزيعها ـ بأمر الخليفة ـ على مَن يطلبون الإنعام من الخليفة أثناء خروجه(١١).

ونلمس من رسائله اتصاله بشخصيات سياسية وإدارية وأدبية في أقاليم الدولة الإسلامية، منهم الأمير أبو القاسم ابن ولي العهد العباس بن شعيب(١٢)، والوزير أبو الفرج أحمد بن محمد القشوري(١٣)، وابن البناء، وهو أحد النصارى الذين تولوا بعض أعمال الدواوين(١٤)، والقاضي أبي الحسن علي بن الحسن بن محمد بن أبي الدبس(١٥)، والحسين بن بشر

---

(٨) الحباشنة، ديوان الإنشاء الفاطمي، ص ٧٥

(٩) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص ١٤٥، القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج٣، ص٤٦ (وفيه: توفي ٤٤٣هـ!!) ؛ ابن الساعي، الدرّ الثمين في أسماء المصنفين،ج١، ص ١٠٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص ٧٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١، ص٩٧؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،ج٤، ص ٨٥٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٣٣٧؛ السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج١، ص٤٤٧؛ الزركلي، الأعلام ج٥، ص ٣١٤

(١٠) الأحمدي، خلود، القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية / دراسة في الحياة الاجتماعية، ص١٠٨.

(١١) العميدي، الرسائل، مقدمة التحقيق ص (ح)

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٦٧

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٢، ٣٢، ٤٩، ٧٩، ١٧٠

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٠٢، ٢٣٠، ٤٣٧ ـ ٤٣٨

(١٥) المصدر نفسه ص ١٨، ٣٢١

متولي ديوان الخاص(١٦)، والقاضي أبو الحسن بن أبي طالب الزيدي(١٧)، والعديد من الأشراف(١٨).

ترك العَميدي عدداً من المؤلَّفات والكتب، بعضها مطبوع متداول والآخر لا يزال مخطوطاً أو في حكم الضائع، ومن مؤلفاته:

- الإبانة عن سرقات المتنبي
- الإرشاد إلى حلِّ المنظوم والهداية إلى نَظْم المنثور.
- انتزاعات القرآن.
- تنقيح البلاغة: ذكره ياقوت الحموي في عشرة مجلدات.
- كتاب العَروض.
- كتاب القَوافي: وصفه ياقوت بأنه كتاب كبير.
- رسائل العَميدي(١٩)

رسائل العَميدي(٢٠)

تضمنت رسائل العَميدي نصوصاً أدبية محكمة الصنعة على عادة كتاب الإنشاء، كتبت بأسلوب يجمع بين السجع والبلاغة، وسلاسة السرد، مع الاستشهاد بالآيات القرآنية والأشعار والحكم والأمثال، وتنوعت موضوعاتها بين المراسلة الإخوانية والاستعتاب والشكوى والاستهداء واستنجاز الحوائج والاعتذار والتهكم والهجاء، وجهها إلى بعض إخوانه أو بعض من جمعتهم به علاقة، سواء في مصر أو بلاد الشام أو العراق والمشرق الإسلامي.

أما القيمة الوثائقية لبعض رسائل العَميدي فتنبثق من كونها تؤرخ لحقبة من تاريخنا الإسلامي، وتتناول أحداثاً غيبتها ـ نوعاً ما ـ المصادر

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٨٩، ١٣٢، ٢٢١، ٢٣٠، ٢٥٠، ٣٦٨

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٣٧، ٣٦٤، ٣٨٩

(١٨) المصدر نفسه ص ٢٨، ٣٨، ١٢١، ١٤٨، ١٦٣، ٣٤٢، ٣٦٤، ٤٢٩

(١) انظر عن مؤلفاته: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص١٤٥، ١٤٦، القفطي، إنباه الرواة ج٣، ص٤٦، الزركلي، الأعلام ج٥، ص ٣١٤.

(٢) حققها ونشرها الدكتور إحسان ذنون الثامري، وصدرت ضمن إصدارات كرسي الدكتور عبد العزيز المانع المحكّمة، في جامعة الملك سعود

التاريخية المباشرة، فضلاً عن أهميتها الزمنية لمعاصرتها بعض الأحداث، ومصاقبتها لها. فهي تتناول جانباً من علاقة الدولة الفاطمية ببعض محاولات الخروج عليها، وكيف تعاملت معها، كما تكشف عن محاولات عديدة من جانب الخليفة الفاطمي لاستمالة هؤلاء الخارجين، ومحاولة استرضائهم بالإقطاعات والأموال ومنحهم عهود بإمارتهم على قبائلهم.

وتكمن أهمية هذه الرسائل في معاصرتها للأحداث، وتفردها ببعض المادة التاريخية، فهذه الرسائل لم ترد - حسب علمي - في أي من المصادر التاريخية الأخرى.

علاقة الفاطميين بالزعامات الشامية المعارضة

ترتبط أربع رسائل من رسائل العميدي بحدث يتصل بالشام ومحاولة الاستقلال به عن الإدارة الفاطمية في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (حكم ٤١١- ٤٢٧هـ/ ١٠٢٠ - ١٠٣٥م)، تزعمها ثلاثة من كبار زعماء القبائل، هم: أمير بادية الشام صالح بن مرداس بن إدريس الكلابي (ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، وأمير بني طيء حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي (ت بعد ٤٢٠هـ/ ١٠٣٠م)، وسنان بن عليان بن البناء الكلبي (ت ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م)، وكان هؤلاء القادة الثلاثة قد اتفقوا على اقتسام بلاد الشام فيما بينهم، فتكون المنطقة الممتدة من حلب إلى عانة لابن مرداس، والمنطقة الممتدة من الرملة حتى حدود مصر لحسان بن الجراح، ودمشق لسنان[٢١].

استغل زعماء القبائل الثلاثة الظروف السياسية التي عصفت بحكم الفاطميين لأول عهد الظاهر لإعزاز دين الله، الذي تولى الحكم صغيراً

(٢١) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ج١، ص ٢١٤، ابن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق،ج٢، ص ٢٤٤، ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج ٥، ص ٢٢٣٩، ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج١، ص ١٩٦، ابن الأثير، الكامل في التَّاريخ، ج ٩، ص ٢٣٠، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، ص ١٩٦، ٢٠٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٤٨، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٤٧، محمد محاسنة، تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي، ص١١٧.

بعد اختفاء والده الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م وكان عُمْره وقتها ست عشرة سنة، وقاد الدولة بتدبير عمته ست الملك. ويذكر ابن تغري بردي أن الظاهر كان ضعيف البدن مصاباً بعلة الاستسقاء التي توفي بها صغيراً وكان عمره ٣١ سنة، وأن صغر سنه وضعف بدنه هو الذي أطمع الخارجين عليه فكثر المتغلبون على البلاد في أيامه(٢٢).

وكانت سيرة الفاطميين في إدارة الشام سيئة(٢٣)، خاصة في عهد الحاكم بأمر الله الذي صورته بعض المصادر على أنه «أفنى أمماً وأباد أجيالاً»(٢٤)، وكان نائبه بالشام مرتضى الدولة منصور بن لؤلؤ الجراحي (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) «ظلوماً عسوفاً؛ فأبغضه الحلبيون وهجوه هجاءً كثيراً»(٢٥)، إضافة إلى ظهور الدروز في سواحل الشام على يد داعي التوحيدية حمزة بن علي الزوزني الملقب بالهادي(٢٦)، وخطر القرامطة الذي تهدد الجزيرة وبلاد الشام، والهجمات الرومية المتتالية على السواحل الشامية وشمال بلاد الشام(٢٧)، كل ذلك أدى إلى ضعف السلطة الفاطمية بالشام، وتنامي العداء لنوابها، وأتاح للكثير من الزعامات ـ خاصة القبلية منها ـ فرصة سانحة للتغلب على بلاد الشام والسيطرة على

(٢٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٤٧، ٢٥٤، وانظر: ابن الأثير، الكامل ج٩، ص ٣١٤، ٣١٩، النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ٢٠٤، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٢٤

(٢٣) ابن الأثير، الكامل ج٩، ص ٢٣٠

(٢٤) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة ج١، ص ٢٠٢، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١١٧ ـ ١٢٣، وانظر عن سيرة الحاكم وجبروته: محمد عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ص ١٠٣ وما بعدها.

(٢٥) ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ١٧٧، أبو الفداء، اليواقيت والضرب في تاريخ حلب، ص ١٤٩

(٢٦) العظيمي، تاريخ حلب، ص ٣٢٣، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة ج١، ص ٢٠٣، النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ١٩٨، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١١٣

(٢٧) انظر عن محاولات الروم للتغلب على المنطقة عند: ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٤ وما بعدها، ابن الأثير، الكامل ج٨، ص ٢٣٣ وما بعدها.

نواحيه[٢٨]، وجعل أيضاً أهل حلب يسلمون المدينة لصالح بن مرداس عندما حاصرها[٢٩].

وتجدر الإشارة إلى العلاقة بين أسرة بني الجراح والقرامطة والدولة الفاطمية منذ أول خليفة فاطمي بمصر؛ إذ جمعت بين آل الجراح والقرامطة علاقة تحالف ومؤازرة، وكان أبو علي القرمطي صديقاً ودوداً لأمير طيئ المفرج بن دغفل بن الجراح (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)[٣٠]، وكان بنو الجراح بعسكرهم وقوتهم إلى جانب القرامطة في مواجهة جيش الدولة الفاطمية أثناء المواجهات في سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م، واستطاع الخليفة المعز لدين الله (حكم ٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٢ ـ ٩٧٥م) أن يستميل حسان بن المفرج بن جراح إلى جانبه بأن قدم له مائة ألف دينار فينسحب من المعركة، فوافق على ذلك، لكن المعز خدعه بأن أرسل له دنانير مزيفة في أكياس جعل في أعلاها بعض القطع الصحيحة غير المزيفة، وانطلت الحيلة عليه وهُزم جيش القرمطي[٣١]. واتجه بنو الجراح إلى الخروج على الخليفة الحاكم، وكان خروجهم مؤثراً مقلقاً للخليفة «ولم يفتق عليه (الحاكم) فتق أعظم من عصيان آل الجراح»[٣٢].

وكانت إمارة بني مرداس قد نشأت سنة ٤١٤هـ/١٠٢٤م واستمرت تحكم المنطقة الممتدة من بعلبك إلى عانة مدة ست سنين، حتى عزم

---

(٢٨) العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٦، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ١٩٦ ـ ١٩٧

(٢٩) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٤٧

(٣٠) الصفدي، الوافي بالوفيات ج١١، ص ٣٧٥.

(٣١) ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، المعروف بذيل تاريخ دمشق، ص ٣، ابن الأثير، الكامل ج٨، ص ٦٣٩، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ١٠٤، وكان ابن حسان عند موافقته على الغدر بالقرمطي بما بذله له الخليفة المعز من مال كتب رسالة الموافقة وأرسلها إلى المعز، ونصها: «ابعث إليّ بما التزمت وتعال بمن معك، فإذا التقينا انهزمت بمن معي فلا يبقى للقرمطي قوة فتأخذه كيف شئت». انظر نص الكتاب عند: محمد حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، ص ١٠٧

(٣٢) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة ج١، ص ١٩٩.

الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله على مواجهتهم، فأرسل جيشاً بقيادة منتخب الدولة التركي أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري(٣٣) (ت ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م) وتكاتف صالح بن مرداس وحسان الطائي لصد الحملة الفاطمية، وكان اللقاء في الأقحوانة على نهر الأردن بالقرب من طبرية، والتي سماها العَميدي الأقحوانة الصغرى تمييزاً لها عن الأقحوانة التي بنواحي مكة(٣٤)، وانتهت المعركة بمقتل أسد الدولة ابن مرداس وولده الأصغر، وهروب ابن حسان.

وينفرد ابن بطريق بذكر محاولة ابن مرداس وحسان الاستعانة بملك الروم باسيل Basil (ت ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)، ضد الفاطميين وأنهم «طالعوه بما تم رأيهم عليه وتوسّلوا إليه في أن ينجدهم ... فلم يَرَ إجابتهم إلى ما رغبوا إليه فيه». كما ينفرد أيضاً بذكر علاقة المصاهرة التي جمعت بين حسان وسنان توثيقاً للعلاقة فيما بينهما، إذ زوج حسان أخته لسنان الكلبي(٣٥).

هذا خبر ابن مرداس، أول الأمراء المرداسيين بحلب، وخبر ابن الجراح الطائي، وسنان الكلبي ملخصاً كما أوردته المصادر(٣٦).

---

(٣٣) ورد اسمه محرفاً في بعض المصادر فعند ابن الجوزي،المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٥، ص ٢٠٢: التزبري، وفي أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر الأزدي (ج١، ص ٢٠٤، ٢٠٥) : الدرزي، وفي تاريخ ابن القلانسي (ص٧١) : التزبري، وفي التاريخ المجموع لابن بطريق (ج٢، ص ٢٤٥. ٢٥٣) : البربري، وفي الكامل لابن الأثير (ج٩، ص ٢٣٠، ٢٣١) : البربري والبريدي، وفي تاريخ ابن خلدون (ج٧، ص ١٢٨، ١٢٩، ٥٨٢) : الزريري، والوزيري، والدريدي، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي (ج٢، ص ١١٨) : الدرزي. والصواب هو «الدزبري»، وهي نسبة ـ كما وضحها ابن القلانسي وابن خلكان والصفدي ـ للقائد الذي اشتراه وهو دزبر بن أويتم الديلمي. انظر: ابن القلانسي، تاريخه ص ٧٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢، ص ٤٨٧، الصفدي،تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، ج٢، ص ٢٩ ، الصفدي، الوافي بالوفيات ج١٦، ص ٢٧٢.

(٣٤) العميدي، الرسائل ص ٣١٤

(٣٥) ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥

(٣٦) ابن القلانسي، تاريخه ص ٧٣، ابن الجوزي، المنتظم ج١٥، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١٢، الورقة ٥٧ب، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة ج١، ص ٢١٤ ـ ٢١٥، ابن

وباستثناء المقريزي الذي استعرض في كتابه «اتعاظ الحنفا» أخبار الدولة الفاطمية في مصر والشام، فإن أغلب المصادر التاريخية تسكت عن مدة الست سنوات بين تغلب ابن مرداس على حلب ونواحيها وتغلب ابن حسان على الرملة حتى وقعة الأقحوانة التي انهزم فيها العرب وهرب فيها حسان وقُتل ابن مرداس، وتقع هذه المدة من سنة ٤١٥هـ حتى ربيع الآخر سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٤ ـ تموز ١٠٢٩م، وبالتالي فيمكن تلمس بعض الإفادات التاريخية ووصف مجريات الحال من خلال ما يرويه العَميدي في رسائله الأربع، اثنتان منها كتبهما قبل الإيقاع بابن مرداس وابن الجراح في يوم الأربعاء ٢٥ ربيع الآخر ٤٢٠هـ/ ١٠ تموز ـ يوليو ١٠٢٩م، ورسالتان كتبهما بعد الإيقاع بهما، والرسائل الأربع ـ كما عنونها ـ هي:

١- كتابُ وعيدٍ إلى حسّان بن جرّاح لـمّا نَهَب الرَّمْلة وخالَفَ الدَّوْلَة(٣٧).

٢- كتاب إلى صالح بن مِرْداس لمّا وَرَدَ الشّام ونَهَب ضِياعَها في الوَعْدِ والوعيد، والتوبيخ والتفنيد وهي مثل رسالة حَسّان بن جَرّاح(٣٨).

٣- كتابُ نُسخة فتح الشّام وقَتْل صالح بن مِرْداس وهزيمةِ العَرب قَيْسِيّهم وطائيّهم بشَرْح الحال إلى صديقٍ له بدمشق(٣٩).

٤- نسخةُ إحْمادٍ لأهل دمشق لِما صَبَروا وجَدّوا في قتال الأعداءِ وجاهدوا(٤٠).

بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٤ ـ ٢٥٣ (وهو أكثر المصادر استيعاباً لأخبار الحلف القبلي الثلاثي)، الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، «الملحق بتاريخ ابن البطريق»، ص ٤١١، العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٩، ابن الأثير، الكامل ج٩، ص ٣٦٩، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، ابن العديم، بغية الطلب ج٥، ص ٢٢٣٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٣، ص ٤٠٧، ابن خلدون، تاريخ ج٧، ص ٥٨٢، النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ٢٠٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٥٢. ٢٥٣، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٧٨

(٣٧) العميدي، الرسائل ص ٢٦٧ ـ ٢٨٣

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٨ ـ ٣٠٠

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٣٠٨ ـ ٣٢٠

ورواية الأحداث والتفاصيل عند العَميدي تعبر عن وجهة النظر الرسمية للدولة، وبالتالي فإن الأوصاف والنعوت التي وصف بهما القائدان ابن مرداس وحسان ليست بالضرورة تطابق حالهما، فالعَميدي موظف دولة خاطبٌ لودّ الخلفاء، ومعنيٌّ بالتشنيع عليهما وتصغير حالهما، ورسائله مشحونة بالتهديد والوعيد لهما ولمن يفكر بالانضواء تحت جناحهما أو السير على خطاهما في الخروج على الدولة، وكتب رسائله الأربع عن أمر الخليفة وبلسانه كما يذكر ذلك في خاتمة كل منها(٤١)، وهو ما يؤكده ابن هلال الصابئ وسبط ابن الجوزي أيضاً من وجود مراسلات ومكاتبات تصف مجريات ما جرى في الأقحوانة(٤٢)، ومن هنا تبرز قيمة رسائل العَميدي في كونها وثائق رسمية تدلل على وجود مراسلات بين الخليفة وبعض الخارجين على الدولة لاستمالتهم وتحذيرهم من مغبة العصيان، وهذا مما لم يرد ذكره في مصادر تلك الحقبة التي تناولت خبر ابن مرداس وحسان.

---

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٣

(٤١) المصدر نفسه، ص ٢٨٣، ٢٩٩، ٣٠٨، ٣٧٣

(٤٢) ابن القلانسي، تاريخه ص ٧٤ (هامش ١) ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج١٢، ورقة ٥٧ ب ـ ٥٨ أ

الرسالة الأولى: رسالة وعيد إلى حسان الطائي لما خرج على الدولة ونهب الرملة

بما إن الدولة الفاطمية لم تكن تنظر لحركات الزعماء الشاميين الخارجين على سلطتها إلا من منظار الخروج على السلطة الشرعية وولاية ولي الأمر، فإن العَميدي ابتدأ رسالته الأولى لحسان الطائي ـ وهي إضافة لرسالة ابن مرداس من أطول رسائله كافة[٤٣]ـ دون سلام أو ما يشير إلى مودة واسترضاء للمُرسَل إليه، مذكراً إياه ـ في طالع الرسالة ـ بأفضال مؤسسة الخلافة عليه وجزيل إحسانها إليه، وأن ما هو فيه من عز ورئاسة لم يكن إلا بفضل الخلفاء الفاطميين، مشيراً إلى اليد التي أولاها إياه أمير المؤمنين الظاهر، بل أولاها هو ومن سبقه من خلفاء الفاطميين لأسلافه الطائيين، إذ كانوا ـ حسبما يذكر العَميدي ـ قد «أحيَوْهم وكانوا أمواتاً، وجمَعوهم وكانوا أشتاتاً، وأعلَوْا أقدارَهم وكانت ذُؤَابةً ذابلة، وشَهَروا آثارَهم وكانت خاويةً خاملة، ورفعوهم من بطون الفَدافد، إلى ظهور الفَراقد، ومن ذَرَى الحفائر، إلى ذُرَى المنابر، ومن إدمان الشَّقاء إلى عِنانِ السَّماء، ومن أَخْفافِ النَّعَم، إلى أكناف النِّعَم، ومن مُجانَسة البهائم، إلى مجالسة الأكارم، حتّى شَبِعوا بعد المجاعة، وارتفعوا عَقِيبَ الضَّراعة، وأمنوا فَرْطَ المخافة، وسمِنوا إثْرَ النَّحافة، وانتعشوا بعد الانخفاض، وانبسطوا عَقِبَ الانقباض، وحَسَدهمُ العَربُ وكانوا مرحومين، ورَهبَهم الناسُ وكانوا مظلومين مهضومين، وملَكوا البلادَ وكانوا عنها مُبعَدينَ مطرودين، وغنِموا الأموالَ وكانوا مُعدَمينَ مجدودين»[٤٤].

وبعد أن أسهب العَميدي في تعداد هذه المكارم على أسرة الجراح يشير إلى أنهم قابلوا ذلك بالنكران ولم يحفظوا الأيمان، وأن النعمة التي تحصلت لهم غرتهم وأغرتهم في طلب الملك، وأن سكوت الدولة الفاطمية عنهم طول هذه المدة لم يكن عجزاً منها عن مواجهتهم والقضاء عليهم؛ إنما بسبب الرأفة والرحمة «وعناصرُ الكرَم التي عَجَنَ اللهُ طينَ الإمامة به والخلافة، والحِلمُ الذي يتَزعزَعُ دونه الجبلُ وهو ثابت، والعقلُ الذي لا

(٤٣) تقع كل منهما في نحو ١٦ صفحة من النص المطبوع.

(٤٤) العميدي، الرسائل ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

يجحَدُه إلّا مُغالطٌ أو مُباهت، والتأدُّبُ بأدب الله في العَفْو عند المقدرة»(٤٥)، ولولا ذلك لجرى استئصالهم في أي مكان كانوا.

وإذا كانت هذه حال أسرة بني الجراح الطائيين، فإن حساناً من بينهم كان ـ وفقاً للعميدي ـ صاحب سوابق في الخروج على الدولة أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م)، ولأن العَميدي كان كاتباً رسمياً للدولة، فإنه لم يصرح بتفاصيل هذه القضية التي نجد أخبارها مفصلة عند ابن ظافر الأزدي(٤٦) وعند ابن العديم(٤٧) في ترجمة حسان نفسه، إذ إن ذلك يظهر ضعف الدولة أمام تلك الحركات الخارجة، حيث إن حساناً أجار واستضاف أبا القاسم الحسين بن علي بن المغربي (ت ٤١٨هـ/ ١٠٢٦م) الهارب من الخليفة الحاكم، بعد أن قتل والده وأخويه سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وكان الحاكم قد قلد يارختكين ولاية الشام، وأمر الناس بالترجل له فعز على أسرة بني الجراح ذلك، فترصد حسان له عند خروجه من غزة وأسره هو وحرمه وأولاده واستولى على أمواله، وبذل الحاكم المال لخلاصه فلم يفلح بل إن حساناً قام بقتل يارختكين. ثم إن حساناً وأباه المفرج بايعوا أمير مكة أبا الفتوح الحسن بن جعفر وتلقب بالراشد ولم يرجعا عن مبايعتهم إلا بعد أن تمكن الحاكم من استمالتهم واسترضائهم بالمال الكثير(٤٨).

ويواصل العَميدي وصف حسان بأقبح الأوصاف والنعوت: الغدر والخيانة والمراوغة والمجاهرة بالعصيان ونكث الأيمان، وأنه جنح إلى العدوان والاعتداء والفساد، وافتعل من المخازي «أصغرُها كبيرة لا تمحو الأيامُ عنك عارَها وعَوارَها، وأيسرُها جريرة لا يَحُطُّ الإسلامُ عنك

(٤٥) العميدي، الرسائل، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٤٦) أخبار الدول المنقطعة، ج١، ص١٩٥، ص١٩٩ وما بعدها.

(٤٧) بغية الطلب، ج٥، ص٢٢٣٩-٢٢٤١.

(٤٨) العظيمي، تاريخ حلب ص ٣١٩، ٣٢١، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة ج١، ص ١٩٩-٢٠٠، ابن القلانسي، تاريخ ص ٦٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج١٢، الورقة ٤٧أ، ابن العديم، بغية الطلب ج٥، ص ٢٢٤٠، النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ١٨٥، عنان، الحاكم بأمر الله ص ١٨٢

آصارَها وأوزارَها، حتى سارت الرُّكبان بذكر مخازيك برّاً وبحراً، وتحدثت النِّسوان بقُبح مَساويك سرّاً وجهراً»(٤٩)، وأن حسّاناً اعتز بما تجمع لديه من العدة والعدد، فانقلب على الخليفة ظاناً أنه بعيد عن أن تطوله يد الدولة.

ويصف العَميدي مادة جيش حسان وأتباعه، بأنهم «أحزاب الضلال والخَبَال»(٥٠)، و«من خُرّاب البلاد، والساعينَ في الأرض بالفساد، والطُّمّاع الذين آتيتَهم من فضل ما أنعَمَ به عليك، وآسَيْتَهم ببعض ما حصَلَ من أموالِه لديك، وقُدتَهم بخزائم أُنوفِهم، إلى لوازم حتوفِهم، وبمطامع آمالِهم، إلى مصارع آجالِهم، ونصبتَ حِيَلَك في إمساكِهم، لِغرضِك في إهلاكِهم واحتناكِهم»(٥١).

وربما كان هذا للتقليل من شأنهم عنده، والاستهانة بهم، فيؤثر ذلك عليه سلباً، ويفت في عضده أي أنها دعاية نفسية تجعله يخسر المعركة.

وكان والد حسان المفرج بن دغفل الطائي (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) قد خرج على العزيز بالله الفاطمي (حكم ٣٦٥- ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م) وخلع طاعته وتغلّب على فلسطين وبلاده وبقيت في يده إلى أن خرج إليه من مصر بلتكين التركي(٥٢)، ويعدد العَميدي بعض سوابق حسان في الخروج على الدولة، يمكن تحديد زمنها من سياق الرسالة(٥٣)، فمنها - في أيام الحاكم بأمر الله - أنه جمع جمعاً من الرجال لم يستطع الوقوف أمام جيش الدولة الفاطمية، فرماه - كما يقول العَميدي - «من جنود الله بكتائبَ كانت السَّعادة تَخدِمُ أعلامَها، والهيبةُ تَسيرُ أمامَها»(٥٤)، وأن حساناً ورجاله فروا قبل اللقاء واستحوذ عليهم الفزع والخوف فأصبح

(٤٩) العميدي، الرسائل ص ٢٧٠

(٥٠) المصدر نفسه ص ٢٧٠

(٥١) المصدر نفسه، ص ٢٧١

(٥٢) ابن الأثير، الكامل ج٨، ص ٣٤٣م، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص ١٨١-١٨٤، ابن خلدون، تاريخ ج٧، ص ١٠٧

(٥٣) العميدي، الرسائل، ص ٢٧٥

(٥٤) المصدر نفسه ص ٢٧٢

يتنقل بين البلاد خيفة أن يتم القبض عليه، «وطفِقتَ تطيرُ بخوافي الفَزَع بين سَمْع الأرض وبَصَرِها، غادراً سادراً، وتستترُ بحَجرِها ومدَرِها حائراً عائراً، وتَعثُرُ في أذيال الخَجَل غادياً ورائحاً، وتغوصُ في أوحال الوَجَل سائحاً وطافحاً، حتى أشفَيْتَ على المَخْمَصة والمَسْغَبة، وأوفَيْتَ على المجاعة والمَتْرَبة، واستجرتَ بأفناء العرب كالجار الأذَلّ»(٥٥)، فما كان أمامه إلا طلب العفو والتماس الصفح من الحضرة، معترفاً بجريرة ما فعل، ولأجل ذلك تشفّع بوجوه الدولة وأعيانها واستأذن للمثول بين يدي الخليفة للاعتذار وتقديم الطاعة، متوقعاً أن يلاقي التعنيف والتقريع من الإمام لقاء ما افتعل من سوء الصنيع ونهب الأموال وتخريب الأعمال، غير أن الخليفة ـ الحاكم بأمر الله ـ قابله بالإبقاء عليه والإحسان إليه، وترقية شأنه، وأنه أسنى عليه من الخلع والملابس والمنازل. ويفهم من كلام العَميدي أن حساناً أقام مدة بالقاهرة قبل الرجوع إلى بلده، وبعد مدة من إقامته هذه محظياً من الخليفة، أقطعه إقطاعات جزيلة وجدد إمارته على قومه بني الجراح الطائيين، وهذا يعني بعد وفاة والده المفرج الطائي سنة ٤٠٣ه/ ١٠١٢م، فعاد إليهم محملاً بالمال والهدايا، وأن الخليفة قرر له إقطاعات متسعة المساحة والبقاع تغل ارتفاعات كبيرة، وبحسب العَميدي فإن الخليفة كان يأمل من حسن صنيعه هذا مع حسان إلى أن يضمن طاعته ويأمن من أن تمتد يده إلى تخريب المواضع والبلدان وهدم المباني وإثارة الفتن واقتسام النواحي مع أتباعه(٥٦). وهي سياسة حكيمة لتأليف قلبه وكسب ولائه، وانقلاب عدائه إلى موالاة.

ومن هذا نرى أن الخطاب السياسي الفاطمي تجاه تلك الزعامات يحاول ألا يظهر الدولة ضعيفةً ويمكن أن يتراجع نفوذها في الشام، بل يؤكد على قوتها وقدرتها على احتواء الأعداء والخارجين. كما يتضح من كلام العَميدي التأكيد على فكرة الحق الإلهي في الحكم، وأن الخليفة هو ظل الله في الأرض، وهو الإمام الواجب الطاعة.

---

(٥٥) المصدر نفسه ص ٢٧٢

(٥٦) العميدي، الرسائل، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

ويذكر العَميدي محاولة ثانية لحسان في الخروج على الدولة الفاطمية، فإنه ما إن عاد إلى الشام من رحلته إلى القاهرة حتى انضوت له جماعة من المفسدين أصحاب الفتن – كما يصفهم - فأغروه وأغرُّوه وبايعوه، ونسي العهود التي قطعها على نفسه، وتحالفوا على المخالفة، وأمضى مدة من الزمن على هذه الحال حتى بلغه انتقال الخلافة إلى الظاهر واستتباب الأمن وشيوع العدل في دولته، وارتحال الجميع إلى أعتابه «الحاضر والبادي، والمُوالي والمعادي، من التشرف بشريف دعوته، والتبرُّك بجليل حَضْرته»(٥٧)، فكتب حسان رسالة إلى الخليفة الظاهر يذكِّر فيها بأيامه وطاعته للإمام ويسأله تجديد اصطناعه واستخدامه، وأنه راغب في المثول بين يديه ليبذل الخدمة ويقدم الولاء والطاعة، غير أن مكاتبات ورسائل أخرى كانت تصل للقاهرة ممن وصفهم العَميدي بالثقاة تشير إلى خلاف ذلك، تتضمن هذه الكتب أخباراً سيئة وأفعالاً قبيحة لحسان، وبرغم ذلك فقد استُجيب لطلبه في المثول عند الخليفة وجرى التغاضي عما سلف من سوء سيرته والعفو عن سوابق أفعاله. وهذا من سياسة المسامحة وتأليف القلوب، التي اتبعها الخطاب السياسي للفاطميين. وهي سياسة أدت إلى نتائج مثمرة في كثير من الأحيان.

إن العَميدي يصور تحركات حسان بن الجراح على أنها ذات أهداف شخصية ومطامع خاصة، لا تعدو كونها مادية مصلحية. وفي هذا شق لصفوف الخارجين، ومحاولة التفريق بينهم وبين قياداتهم، مما يسهل هزيمتهم.

ويسهب في شرح موقف الدولة تجاه أولئك الخارجين؛ فيخاطب حساناً، ويذكره بما جرى له من أنواع التكريم والمبرة على مثل مثوله الأول، فقد «شُرِّفت من الخِلَع بما ضاقت أرجاءُ رجائك عن نيل بعضها، وأُعطيتَ من نَفَحات الإكرام ما انقبضَتْ يدُ الزّمان عن قبضِها ونقضِها، وأُهِّلتَ لأعالي المراتب والمراقب، وأُنزلتَ منازلَ الأشرافِ والأقارب، ورُفعت من حضرة الإمامة إلى ألطفِ مكان، وأُرضِعْتَ بعد أنواع

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٥

الكرامة من أشرف لِبان، وفُزتَ من جلالة الترتيب والترحيب، ونَفاسة التقريبِ والتلقيب، بما لم تكمُلْ لاقتراحِه قرائحُك، ولم تنهَضْ بأثقالِه جَوارحُك، وظفِرتَ من تضعيف أقطاعِك بما تضاعَفَتْ به قوّتُك، وتكاملت منه مِنّتُك، وخرجت بأملٍ فسيح، ومَتْجَر رَبيح، وسعي نَجيح، وصدر رَحيب، وقَدْر مَهيب، تخدِمك القبائل والعشائر، وتعظِّمُك القنابلُ والعمائر، وتحسُدُك ملوكُ الأرض قاطبةً، وتقصِدُك وفودُهم راغبةً وراهبة»(٥٨). ومن الملاحظ هنا أن العَميدي يؤكد على إظهار قوة الدولة وقدرتها على الاحتواء، وعدم إظهار ضعفها وتزعزع نفوذها.

ومرة أخرى لم يصل حسان إلى أطراف الشام قادماً من مصر حتى رجع - هو ومَن معه - إلى عادتهم القديمة، يخيفون السبل ويقطعون الطرق ويثيرون الفتن، وكان حافز أتباعه في ذلك ما يلاقونه من تشجيع وتأييد من حسان ورضاه الكامل عن أفعالهم.

كانت أفعالهم هذه المرة في الرملة التي يصفها العَميدي بأنها «بلدة في سُرّة المملكة لم تحلم عبَدةُ الصليب بالوصولِ إليها، ولم تَهُمَّ ملوكُ الأرض بالهجوم عليها»(٥٩)، دخلها حسان وهو يضمر الشر لها ولأهلها. ويذكِّره العَميدي بأفعاله فيها: من أنك «استبحتَ أصقاعها، وعطلتَ بِقاعَها، وأحرقتَ رباعَها وخرّبتَ ضِياعَها، واستقْتَ كراعَها، ونهَبْتَ متاعَها، وهدمتَ مساجدَها، وعفّيتَ مشاهدَها، وقتلتَ رجالَها، واستحللتَ أموالَها، وأخليتَ أسواقَها ومنازلَها، وجعلتَ أعاليَها أسافلَها، وسلّطتَ على المستورينَ فيها كلَّ داعرٍ كافر، ومارقٍ فاسق، حتى سفكتَ الدِّماء، وهَتكتَ النِّساء، ونَقلت أقواتَ فقهائها إلى سفهائك، وأبَحْتَ نَعَمَ رُعاتها لدُعاتِك»(٦٠). ويعقب العَميدي بالقول إن ما فعله

---

(٥٨) العميدي، الرسائل، ص ٢٧٦-٢٧٧، ويشير العظيمي إلى أن أم حسان هي من تولت الوساطة بين حسان والخليفة، حيث سافرت إلى مصر في سنة ٤١٤هـ، واجتمعت بأخت الحاكم، فمنحه الخليفة الظاهر الأمان ووطئ بساطه وأقطعه عدة إقطاعات بالشام. انظر: العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٥٩) العميدي، الرسائل ص ٢٧٧.

(٦٠) المصدر نفسه ص ٢٧٨، ويقول ابن العديم: «فتح حسان الرملة بالسيف في رجب سنة ٤١٥هـ وأحرق أكثرها ونهبها وسبى خلقاً من النساء والصبيان» انظر زبدة الحلب ج١، ص ١٩٦، وانظر أيضاً: تاريخ

من هتك محارم المسلمين وارتكاب الفواحش وسبي الحرائر لم يفعله عبدة الأصنام والحاقدين على الإسلام لو ملكوا دياره، ولم يفعله الزنج بأهل البصرة، ولا الروم بالمسلمين، ويتساءل كيف لمسلم أن تبلغه هذه الأفعال ولا يمتعض للمسلمين ولا يطالب بدماء الأطفال واستنقاذ بنات الأشراف، ويصف هذه الأحداث بأنها: «المصيبة الفادحة في الإسلام، الفاضحة للأحكام، الطاردة للأحلام، الجالبة للآثام، المُزِلّة للأقدام، الباقية على الأيام، ما يذهل الألباب، ويقطع الأسباب، ويُشيبُ رؤوسَ الولدان، ويُميت نفوسَ ذوي الإيمان»(٦١).

إن تصوير العَميدي لحسان ومن معه بالمستبيح والمخرب والمفسد والسافك للدماء والهاتك للأعراض ومرتكب الفواحش والمعتدي على حرمات الناس وأموالهم يؤدي إلى استثارة الناس وتأليبهم عليه، وهو خطاب موجه – في الحقيقة – للناس وليس لحسان وجماعته، يظهر فيه نظرة الدولة إلى تلك الحركات ويشخص ماهيتها.

ولعل هذا أسلوب من الأساليب النفسية التي اتبعها العَميدي ممثلاً للدولة مع الخارجين عليها. ويعضد هذا الأسلوب أسلوب آخر هو التخويف والترهيب، ويظهر ذلك في خطاب العَميدي لحسان حينما يسأله: هل يظن بأنه يسلم بما غنم، ويأمن مما ارتكبه من أفعال؟ ويحذره من سيوف الخليفة التي ستصله إن قعد أو هرب، وأن العزيمة متجهة للقضاء عليه بعد أن انتشرت أخباره الشنيعة في البلدان، وأن الخليفة قد نزع عنه كل ما أعطاه من مكاسب وأعطيات، وأنه مغضوب عليه، ومطلوب أينما كان «وأن العزائمَ الصّادقة مصروفةٌ إلى اقتناصِك، والأسدادَ عليك مضروبةٌ دون خلاصِك»(٦٢).

وتجاوز العَميدي عن التطرق إلى قيام حسان بقتل أعوان الدزبري في سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م، ذلك أن الدزبري حاول قبض

حلب للعظيمي ص ٣٢٦، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٤، الداوداري، كنز الدرر وجامع الغرر «الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية»، ص ٣١٩

(٦١) العميدي، الرسائل ص ٢٨٠

(٦٢) العميدي، الرسائل، ص ٢٨١

أموال حسان من إقطاعاته في بيت جبرين، وأرسل لذلك مجموعة من الرجال فقبض عليهم حسان وقتلهم(٦٣)، وسكت العَميدي أيضاً عن الهزيمة التي لاقاها أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري في سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م، بعد أن جهزه الظاهر بعساكر كثيفة لمحاربة حسان، فاستنجد حسان بحليفه ابن مرداس الذي أعانه وهزموا أنوشتكين، ودحروه عن الرملة إلى عسقلان وعاد منها مفلولاً(٦٤)، كما سكت أيضاً عن الإشارة إلى هذه الهزيمة في الرسالة الثالثة التي سماها «نسخة فتح الشام» وسيأتي الكلام عليها تالياً، والتي شرح فيها مجريات المعركة لكنه ألمح إلى قيام الخليفة بإرسال الجيوش تلو الأخرى لمحاربة حسان وابن مرداس: «فلم يزَلْ يمُدُّ العساكرَ المنصورةَ من مقرّ الخلافة برجالٍ تعوَّدوا من عند الله نَصْراً وألطافاً، ويؤيّدُهم من بيوت الأموال بما يزيدُ على قَدْرِ الكفاية أضعافاً»(٦٥). وكما يلاحظ، فإن العَميدي يتحاشى الإشارة إلى الإخفاقات التي تمنى بها الدولة، ولو بصورة غير مباشرة. وهذا يتضح في عموم الخطاب السياسي الفاطمي. ولعل ذلك طبيعياً بالنسبة لمتحدث يعبر عن السلطة الفعلية القائمة.

ولا يفتأ العَميدي يذكر حساناً بأفعاله والحال التي سيصير إليها إذا لم يرجع عما فعل: «فأين المفَرُّ إذاً من الله جَلّت قدرتُه وقد أسخطتَه بمَرْضاة كلّ خاربٍ ذاعر، وعصَيْتَه في طاعة كلّ نافقٍ في الفتنة ناعر، وأيُّ حجّةٍ لك عند ربّك وقد هتَكْتَ الحُرَم، وأخفَرتَ الذّمم، وكفَرت النِّعم، وأهلكت الأُمم؟ وما تقول لمولاك الذي آواك وكنتَ شريداً، وأدناك وكنتَ بعيداً، وأغناك وكنتَ فقيراً، وأنماك وكنتَ حقيراً، وقوّاك برجالِه حتى لانت أخادعُ الأيام لك، وأعطاك من أموالِه ما جاوَزَك فيه أملَك، وأوطَأَ عَقِبَك، وقدّمك على من تقَدَّمك في الحسَب والنسَب، وأين المهرَبُ من

(٦٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ١٥٠

(٦٤) ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٧، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ١٩٦ - ١٩٩، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٥٣

(٦٥) العميدي، الرسائل ص ٣١٤، وانظر خبر هزيمة أنوشتكين الدزبري عند: المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٥٣

اللَّيْل الذي هو مدرِكُك، والسَّيل الذي هو مُهلكُك؟ إن رحلتَ تبعَتْك تَبِعاتُ المسلمين فقصَّرت خُطاك، وإن نَزلتَ زلّت بك قدُمك بما قَدَّمت يداك، وإن أغرتَ فمغرورٌ مغلوب، وإن أنجَدْتَ فمنجودٌ مكروب، وإن غَرّبتَ غَرَبَتْ شمسُ اختيارك،وإن شرّقتَ شَرِقْتَ بغُصَص أوزارِك، وإن نمتَ طرَقَتْك طوارقُ السيوف، وإن انتبَهتَ أرهقَتْك صواعقُ الحتوف، وإن شرِبتَ تصوَّرَتْ لك في مشرَبِك آثامُك، وإن أكلتَ أخَذ بمَخنَقتِك طعامك، فلا ملجا ولا وَزَر، ولا مَنْجَا ولا مُعْتصَر، وبربِّك قد أخطأتَ مقاصدَك، وتخطَّيتَ مَراشدَك، ونسيتَ العاقبة، وأسرفْتَ في ظلمك. وأجنَفْتَ في حكمِك»»(٦٦).

إن هذا الخطاب يعبر عن عقلانية وهدوء نفسي في الكتابة، بل هو سياسة طالما اتبعها الفاطميون، يطمحون من ورائها كسب الأعداء وتحويلهم إلى موالين. والحق أن الخطاب السياسي الفاطمي تتداخل فيه سياسات متباينة، تحاول في النهاية ثني الخارجين عما هم فيه، وإعادتهم إلى الموالاة.

وهذا – بالإضافة إلى استثارة الناس والرأي العام إن صح التعبير – فيه وعيد من العاقبة التي ستحل بالخارجين على الدولة، لعل ذلك يثنيهم على معاداتهم الدولة وتصرّفهم تجاهها.

ويختم رسالته بالإشارة إلى أن هذا الإنذار والتحذير من أمير المؤمنين هو المحاولة الأخيرة للاستبقاء عليه قبل أن تتحرك الدولة لمقاتلته والقضاء عليه «فإن وفقت للتوبة والإنابة فلا مقنَطَ من إصلاحك، وإن عُدمتَها رأيت سوءَ صباحِك، والسلامُ على من اتَّبع الهدى»(٦٧).

الرسالة الثانية: وعيد إلى صالح بن مرداس لما استولى على الشام.

افتتحها العَميدي بمقدمة طويلة في معنى الشكر وعوائده على مَنْ يستشعر طاعة المُنعم عليه، وأن الشكر أمر إلهي حث عليه المولى عز وجل، ومن قابل النعم بالجحود والنكران والإعراض فإنه ممتنع من طاعة الله وتوحيده معرض عن رضا الراعي ومتعرض لسخط الرعية.

---

(٦٦) العميدي، الرسائل ص ٢٨٢

(٦٧) العميدي، الرسائل، ص ٢٨٣

وهو من سمات الخطاب السياسي الفاطمي، فهو مشوب بمسحة دينية تكاد تكون ظاهرة في معظم الحالات. أي أن العَميدي يريد أن يبعث إشارة إلى ابن مرداس تفيد بأنه إن احتفظ بولائه للدولة كان في نعمة من الشكر والتقدير والعوائد المادية، على عكس خروجه على الدولة الذي يعرضه إلى خسرانه ذلك التقدير والحرمان من الرضا، وبالتالي تعرضه إلى نقمة الدولة.

ثم أورد العَميدي بعد ذلك مثالاً دالاً لما تحصل لابن مرداس من نعمة، يقول بعد أن صدَّر ذلك بعبارات التقريع «وقد جهِلتَ، ولا يقال: علِمتَ، ما كان من جميل صُنع الله جَلَّ ذكْرُه لك، وجزيلِ عنايتهِ بك، حين أخرَجَك من ذُلِّ الإسار، إلى عزِّ الإيمار، وخَلَّصَك من أيدي الأعداء، إلى أيدي الأولياء، وعوَّضَك عن ضَنَك محبِسِك، رَحْبَ مجلسِك، ونَقَلَك من ضِيق كَبْوتِك وقيودِك، إلى محلِّ إقبالِك وسُعُودِك، وأسلَمَك من الوَحْشة في مكانِك إلى الأُنس بإخوانِك، وأنزَلَك من شُرُفٍ أشرفتَ فيه على حِمامِك، وتمنَّيتَ الموتَ فيه عند قعودِك فيه وقيامِك، إلى أخبِيتِك وخيامِك، ومَأْمنِك الذي لم تحتَلَّ به في منامِك، وشاهدتَ كيف كان دفاعُ الله تعالى عنك حتى انفَكَّ وثاقُك، وتنفَّس خِناقُك، وتيسَّر انطلاقُك، واتّسَع عليك نطاقُك، ورأيتَ كيف نُصِرتَ على الباغي عليك، وظَفِرت بالمسيء إليك، وكيف أُيِّدتَ حتى انتقمتَ ممّن نكث يمينَه وعهدَه، وكيف أُسعِدتَ حتى جازيتَ مَن تجاوَزَ في القدر حدَّه»(٦٨).

وهذا المثال الذي ذكره العَميدي يشير به إلى بداية ظهور ابن مرداس وسيرته، فإنه كان على حلب مولى لسعيد الدولة ابن سيف الدولة الحمداني اسمه ابن لؤلؤ، استطاع أن يستولي على حلب ويأخذها من يد ابن حمدان وخطب للخليفة الفاطمي الحاكم صاحب مصر الذي لقبه بمرتضى الدولة، ثم لم يلبث أن فسد ما بينه وبين الحاكم فطمع فيه ابن مرداس وقومه بني كلاب، وكانوا يطالبون ابن لؤلؤ بالإقطاعات التي كان يماطلهم بها بعد أن وعدهم. واجتمع منهم نحو ٥٠٠ فارس في سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م وهاجموا حلب وعاثوا فيها، فأخذ ابن لؤلؤ في ترتيب

(٦٨) العميدي، الرسائل، ص ٢٨٦ - ٢٨٧

الحيلة للإيقاع بهم والقضاء عليهم، فدعاهم إلى دعوة طعام أعدها «سماط»، فلما كمل اجتماعهم في القلعة قتل منهم أكثر من ١٠٠٠ رجل وقبض على نحو ١٢٠ رجلا كان من بينهم ابن مرداس فقيّده وسجنه بالقلعة لكنه تمكن من الهرب، ووصل إلى قومه بمرج دابق وجمع نحو ألفي فارس وقصد حلب وحاصرها أزيد من شهر حتى تمكن من أسر ابن لؤلؤ وقيده بنفس القيد الذي ألبسه إياه ابن لؤلؤ(٦٩).

ومقصود العَميدي من استجرار الماضي أن يذكره بتقلب الزمان وتغير أحواله بما يستوجب أخذ العبرة والموعظة.

وتأسيساً على هذه المقدمة، شرع العَميدي في تعداد أفعال ابن مرداس ضد الدولة الفاطمية التي يمكن إجمالها على النحو الآتي:

أ) أنه نسي فضل الله عليه بما منحه إياه من كثرة المال والرجال وميل العامة إليه والعز الذي تحصل له بعد الإذلال.

ب) أنه نبذ طاعة مولاه الخليفة (الظاهر) وأظهر الوفاق وهو يسرّ النفاق، ويجاهر بالحق ويستر الباطل.

ج) أنه يموّه بالعصيان، فهو يرفع شعار الدولة ويعلنه لكنه يكذب في تقربه من الدعوة الفاطمية.

د) أنه يبعث برسائل الموالاة والإخلاص للخليفة، ولكنها لا تتضمن إلا الكذب، ويذكر ابن بطريق إحدى هذه المراسلات إذ إنه بعد أن تغلب على حلب ونواحيها في سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م أرسل كاتبه إلى الظاهر فعاد الرسول محملاً بالخلع الجليلة وأطواق الذهب له ولأولاده مع زيادة في الألقاب(٧٠).

---

(٦٩) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة ج١، ص ٢١٤، العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٢، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٦، ابن العديم، بغية الطلب ج١، ص ٥٤٥، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ١٨٠- ١٨١، ابن الأثير، الكامل ج٩، ص ٢٢٧ - ٢٢٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٢، ص ٤٨٧، أبو الفداء، اليواقيت والضرب ص ١٥١ - ١٥٢، الداوداري، كنز الدرر ص ٣٢٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٤٨

(٧٠) ابن بطريق، التاريخ المجموع ج ٢، ص ٢٤٨

ويشير العَميدي إلى أن الخليفة أمير المؤمنين على علم بأول أمر ابن مرداس وآخره، ويعرف باطن مكره وظاهره، وتحقق عنده ذلك عندما دعا ابن مرداس كل المخالفين على الدولة إلى التحالف على العناد والعصيان، وأنه أغلظ الأيمان لأتباعه بأنه ناصح أمين يقصد تحسين أحوالهم وزيادة أموالهم لكنه يسعى في مصالحه وحده وخراب أحوال من اجتمع حوله وذهاب أموالهم. وهذا تأكيد من الخطاب السياسي الفاطمي على شخصنة أهداف الزعماء الخارجين على الدولة، وليس فيه أي مصلحة لأتباعهم، وهي فكرة يلح العَميدي على طرحها ليشق صفوف الخارجين.

كما أن في هذا الخطاب تعبير عن مبدأ من مبادئ الخلافة عند الفاطميين، ألا وهو الولاية، فالإمام في معتقدهم ذو كرامات تكاد تصل إلى كشف الغيب(٧١). وفي هذا تأكيد من العَميدي على هذه الصفة التي تجعل الخارجين على (الإمام) يضطربون ويساورهم الهاجس في قدرات الخليفة العقلية، وما إذا كانت تلك القدرات غيبية، أم ذكاء شخصي، أم أنها معلومات مخابراتية ناتجة عن وجود جواسيس وعيون.

ومن الجدير بالانتباه في كلام العَميدي هو نظرته إلى الأعراب والحط
من شأنهم، فهو يصف أعوان ابن مرداس بأنهم «كلابٌ جَمَعَتْهُم الأهواءُ الفاسدة، والآراءُ الشاردة»(٧٢)، يريد بذلك بني كلاب قوم ابن مرداس، وأنهم
«أولياء الشيطان، وأبناءَ الرِّعيان»(٧٣)، و«حزب الشيطان، وخُرّاب البلدان، الذين استسرى عليهم الخرق، واستَولى عليهم السَّفَهُ والحُمق»(٧٤)، و«الكفرة»(٧٥)، و«الأوباش»(٧٦)، و«العُصبةَ العادية،

(٧١) في هذا، انظر: السجلات المستنصرية التي نشرها عبد المنعم ماجد، ص١١٨، ص١٢٣ على سبيل المثال.

(٧٢) العميدي، الرسائل ص ٢٩٠

(٧٣) العميدي، الرسائل، ص ٢٩١

(٧٤) المصدر نفسه ص ٢٩٢

(٧٥) المصدر نفسه ص ٢٩٣

والكلابَ الغاوِية، والفئةَ الباغية، والطائفةَ الممتدّةَ في الضلالةِ المتمادية»[٧٧]، لكنه يعود ليذكر في موضع آخر بكون الذين استخدمهم ابن مرداس «عرباً صُرْحا كانوا أقدمَ منك نِعماً، وأوثَق عِصمَاً، وأصحَّ ذِمماً، وأكثرَ خَوَلاً وخدَماً، وأكرم أصولاً، وأوفرَ عقولاً، وأكبرَ نفوساً ونَفاسةً، وأجلَّ أقداراً ورياسة، وأوسعَ جِفاناً، وأرفعَ نيراناً، وأشدَّ ضِراباً وطِعاناً، وأسمحَ في الأزلّ والمحل بناناً، وأعزَّ أحلافاً وجيراناً، وأعظمَ مكانةً وإمكاناً»[٧٨]. وهو بذلك يفرق بين (العرب) و(الأعراب). فمفهوم العرب عند العَميدي يختلف عن مفهومه عن الأعراب؛ فالمقصود بالعرب هنا القبائل العربية، وهو استعمال محترم لهم. أما قوله (الأعراب)[٧٩] فهو استعمال معاكس تماماً، إذ يقصد الصفات السلبية السيئة لسكان البوادي، والذين يُطلق عليهم في بعض المصادر: العربان.

والواقع إن هذا الخطاب السياسي القائم على الانتقاص من ناصري الزعماء الخارجين سمةٌ من سمات الدعاية الإعلامية للفاطميين والتي عبر عنها العَميدي، وفي ذلك امتهان لهم ربما زعزع ثقتهم بأنفسهم؛ وكان من نتيجته – بطبيعة الحال – إما الرجوع عن مناصرة أولئك الزعماء، وإما الانكسار النفسي.

ويوالي العَميدي التشنيع على ابن مرداس بذكر الأعمال التي ارتكبها من قتل رجال الدولة صبراً[٨٠] دون الخوف من القصاص،

---

(٧٦) المصدر نفسه ص ٢٩٥

(٧٧) المصدر نفسه ص ٢٩٧

(٧٨) المصدر نفسه ص ٢٩٣

(٧٩) كما في ص ٣٣، ص ٧٧ من رسائل العميدي.

(٨٠) كان صالح بن مرداس قد استولى على قلعة حلب في مستهل جمادى الأولى ٤١٦هـ بعد أن حاصر فيها الأمير سديد الملك ثعبان بن محمد، ووالي القلعة موصوف الصقلبي الخادم، والقاضي أبا الفضل بن أبي أسامة، فلما دخل صالح القلعة يوم السبت ٨ شعبان ٤١٦هـ قبض عليهم ثلاثتهم، ففادى ثعبان نفسه بمالٍ دفعه، أما موصوف فقتله صبرا (الحبس حتى الموت) ، وأما القاضي ابن أبي أسامة فدفنه حياً. انظر: العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٧، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٥، ٢٤٨، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ١٩٩

والاستيلاء على الحصون والقلاع(٨١) مع الادعاء بأنه أخذها بقوة السلاح ولم يكن إلا بالحيل والخداع، والاعتداء على السكان: السليم منهم والمريض، وهتك حرمهم وحريمهم، والاستيلاء على أموالهم وأملاكهم، والعمل على إذلالهم، وتوجيه الأوامر لأتباعه بشن الغارات في الطرق والمسالك، والتعرض لمرتادیها من رسل وقوافل، وإثارة الفتن والدس لمن يعمل على إشعالها، وتخريب البلدان والممالك شرقاً وغرباً(٨٢).

ومن هذا نرى أن التشنيع وذكر مساوئ أولئك الخارجين على الدولة سمة من سمات الخطاب السياسي الفاطمي، يتكرر كثيراً ليحطّ من شأن تلك الزعامات.

ويحمِّلُ العَميدي تَبِعة كل هذه الأفعال إلى ابن مرداس وأن هؤلاء المفسدين لم يفعلوا ذلك إلا بناءً على أوامره وامتثالاً لتوجيهاته، ويزعم العَميدي أن هذه الأفعال أدت إلى هجرة السكان عن مواطنهم وبلدانهم، وأنها امتدت بحراً وبراً(٨٣)، واختصت ببلاد الشام لكن آثارها عمت بلاد الإسلام(٨٤).

والحق إن هذا الخطاب السياسي المشوب بمبادئ اقتصادية لو قدر للشاميين الاطلاع عليه لاستثارهم وحرك مشاعرهم سلباً تجاه أولئك الزعماء الخارجين، فهو يفسر التراجع الاقتصادي لسكان البلاد الشامية بخروج أولئك الزعماء، وبالتالي يحرض الناس على تركهم وعدم مناصرتهم.

---

(٨١) تمكن صالح بن مرداس في سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م من تملك: حمص وبعلبك وحصن ابن عكار بنواحي طرابلس، وكانت في يده من قبل: الرحبة وبالس ورفنية. انظر: العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٧، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص٢٤٨، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ٢٠٠

(٨٢) العميدي، الرسائل ص ٢٩٠

(٨٣) المصدر نفسه ص ٢٩٥

(٨٤) المصدر نفسه ص ٢٩١

ثم إن ابن مرداس عندما ارتكب ما تقدم من أفعال، كتبَ إلى أعوانه وأتباعه المخالفين للدولة يأمرهم بالمجاهرة بإظهار العصيان، وأنه أبان لهم بأن الحنث بالأيمان التي في أعناقهم لا تفسد أيمانهم، ونكث البيعة لا يهدم الأركان، مفترياً ـ كما يقول ـ على الله ورسوله. وأن كلامه انطلى على هؤلاء الأتباع وأن مقصوده لم يكن إعزازهم ونجدتهم بل لإذلالهم، وأن مراده تحصيل الزعامة بين القبائل والجلوس في نوادي العرب بين زعماء عُقيل ونمير ورؤساء كلب وقشير مفتخراً بسيادته على ديار طيء وأنه دوخ القبائل وأخضعها لسيطرته، ثم إنه جعل الغنائم على أهله وعشيرته دون بقية قبائل طيء(٨٥).

وهذا يؤكد على أسلوب التشنيع والانتقاص من أولئك الزعماء، والتقليل من شأنهم والحطّ منهم وإظهار مساوئهم وسلبياتهم.

وبعد هذا يعود العَميدي للتهديد والوعيد المستمرين في غالب الخطاب السياسي الفاطمي تجاه الزعامات الشامية الخارجة، محذراً ابن مرداس من أن سكوت الخليفة أمير المؤمنين (الظاهر) عنه لن يدوم، وأنه لم ينس أفعاله وهو عازم على محاسبته بهمة عالية مجهزاً لذلك العساكر المنصورة المستعدة للانطلاق(٨٦).

ويتباين الخطاب السياسي عند العَميدي، فيتجه بعض الأحيان إلى مخاطبة عقلانية وإقناع منطقي لوجوب الانتهاء عن معاداة الدولة، والعودة إلى الولاء؛ ففي محاولة أخيرة لثنيه عن الاستمرار في معاداة الدولة ينبه العَميدي ابن مرداس من أن كل الذين اجتمعوا حوله وآزروه سيخذلونه عندما يشعرون أن الهيبة قد سقطت عنه، وأنهم لن يعادوا الدولة لأجله «فلا يُسوّل لك شيطانُك أنهم يعادونَ الدَّوْلَة المنصورةَ في مُوالاتِك، أو يحتملونَك إذا عوَّلت عليهم والتجأتَ إليهم على عِلّاتِك، أو يؤثرونَك على مصالح أحوالِهم ونفوسِهم، أو يختارونَك على الجلاءِ عن أوطانِهم ومساقطِ رؤوسِهم،

(٨٥) العميدي، الرسائل، ص ٢٩٣

(٨٦) المصدر نفسه ص ٢٩٥

أو يُحامونَ عنك ليُبيحوا لمُجاوريهم نساءَهم وأولادَهم، أو يتَّبعونَك في مَهْربك ليملِّكوا المشركينَ مقادَهم»(٨٧).

وعلى هذا، فإن العَميدي – معبراً عن رأي الدولة – يمنحه فرصة الاحتفاظ بخط الرجعة، والمسامحة، فينصحه بمراجعة نفسه والتفكير بالعدول عما ارتكب(٨٨)، وأن رسالة أمير المؤمنين هذه إنما هي لتقديم النصح والتذكير والتبصرة وأنه ـ أي الخليفة ـ «لم يُرِدْ أن يُغلقَ بابَ الصَّفح إن رُزقت الاستصفاحَ دونَك، أو يُؤْيِسَكَ من مَراحمِه إذا عَرَف رُكونَك إلى الطاعة وسكونَك، وقد هداك إلى رُشدِك إن أعانك التوفيق، ودعاك إلى التوبة، من قبلِ أن ينسَدَّ عليك الطريق، فإنْ تسَرَّعتَ بعد الإعذارِ والإنذار إلى امتثال مَراسمِه، لَمْ تَعْدم شهودَ مكارمِه، وإن استعذتَ بعدَ الإبقاء والإرعاءِ من نقمتِه»، وبخلاف ذلك فإن نية الخليفة متجهة إلى المقاتلة حتى «لا يبقى لك أثر»(٨٩).

ويمكن ملاحظة بعض القواسم المشتركة في رسالتي العَميدي الموجهتين لابن الجراح وابن مرداس وتشابهٍ في بعض المضامين:

١- استثارة رأي عامة الناس تجاههما والتشجيع على عدم تصديق دعواهما والحث على القضاء عليهما، وبيان أن مصالح زعيمي الثورة هي شخصية بخلاف ما يدعونه من السعي لتحسين أحوال الرعية، ومحاولة الإيقاع بينهما وبين أتباع كل منهما.

٢- الربط بين ما يقوم به بعض الخارجين على الدولة ونسبته إليهما، فالعَميدي يذكر أن ما يفعله هؤلاء المفسدون كان بتشجيع من كليهما (ابن مرداس وحسان).

٣- أنه وجه التساؤل لكليهما: هل يظنان أن الخليفة يسكت عن أفعالهما، وهل تطرق إلى ظنهما النجاة مما ارتكباه.

---

(٨٧) العميدي، الرسائل، ص ٢٩٧

(٨٨) المصدر نفسه ص ٢٩٨

(٨٩) المصدر نفسه ص ٣٠٠

٤- نلاحظ أن الرسالتين وإن كانتا موجهتين إليهما بشخصيهما، إلا أنهما تتضمنان الطلب من المسلمين الذين وصلتهم أخبار خروجهما على الدولة القبض عليهما، أو القضاء عليهما واستئصال شأفتهما.

٥- الغمز في حال الأعراب (قوم ابن مرداس وابن الجراح) والتشنيع عليهم، والتقليل من شأنهم وأنهم «أولياء الشيطان وأغبياء الرعيان».

وبالرغم من مشاركة سنان الكلبي لابن مرداس وحسان الطائي بالثورة والخروج على الدولة إلا أنه استثني من الإشارة، ولم يذكره العَميدي البتة، والسبب في ذلك أن سنان توفي في جمادى الآخرة سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م، وانتهى بموته تحالف الكلبيين ضد الدولة(٩٠)، بل إنهم أصبحوا إلى جانب الدولة في القضاء على مخالفيها.

ويتضح من هذا أن أهداف الخطاب السياسي الفاطمي واضحة وغير عشوائية، بل هي مدروسة، وفيها إدراك لما يتوخى منها من نتائج.

الرسالة الثالثة: رسالة في شرح الحال التي جرى فيها القضاء على ابن مرداس وهروب حسان بن الجراح

نتيجةً لسيطرة ابن مرداس على حلب ونواحيها، وسيطرة ابن الجراح على الرملة، وعدم استجابتهما لرسائل الخليفة في الرجوع عما هم فيه من المخالفة على الدولة، وجه الخليفة الظاهر أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري في عسكر كثيف للقضاء عليهما. وجرى اللقاء على الأقحوانة، ووقعت بينهم الحرب فانجلت عن مقتل ابن مرداس وولده الأصغر، وهروب حسان ابن الجراح(٩١).

---

(٩٠) الأنطاكي، تاريخ ص ٤١١، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٥٣

(٩١) ابن الجوزي، المنتظم ج١٥، ص ٢٠٢، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة ج١، ص ٢١٤ ـ ٢١٥، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٤، ٢٥٣، الأنطاكي، تاريخ ص ٤١١، ابن القلانسي، تاريخ ص ٧٣، العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٩، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٢، ص ٤٨٧، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين) ص ٤٤، ابن خلدون، تاريخ ج٧، ص ٥٨٢، النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ٢٠٦، الصفدي، الوافي

ولا يرد في المصادر التي ذكرت هذا الخبر أية تفصيلات أخرى، وقد وقع الاختلاف بينها في تحديد السنة التي حدثت فيها معركة الأقحوانة ما بين قائل في ٢٥ ربيع الآخر ٤١٨هـ/ ٣ حزيران ١٠٢٧م(٩٢)، وسنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م(٩٣)، وقائل في ٢٥ ربيع الآخر ٤٢٠هـ/ ١٢ أيار ١٠٢٩م(٩٤)، أو في ٨ جمادى الأولى ٤٢٠هـ/ ٢٥ أيار ١٠٢٩م(٩٥)، وقائل في سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م(٩٦).

أما سنان بن عليان فإنه ـ بعد تحالفه مع ابن مرداس وحسان ومحاولة السيطرة على دمشق ـ قد توفي سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م(٩٧)، وتغير موقف قبيلته كلب من هذا التحالف، بل إن ابن أخيه وزعيم كلب من بعد سنان وهو رافع بن أبي الليل بن عليان تولى قيادة الكلبيين مع الدزبري ضد ابن مرداس وحسان(٩٨)، وربما كان هذا سبباً من أسباب هزيمتهما على وفرة ما اجتمع معهما من العرب.

بالوفيات ج١٦، ص ٢٧٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٥٢. ٢٥٣، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٧٦. ١٧٨

(٩٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٧٦

(٩٣) ابن الأثير، الكامل ج٩، ص ٣٦٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٢، ص ٤٨٧، الصفدي، الوافي بالوفيات ج١٦، ص ٢٧٢

(٩٤) ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٥٣، النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ٢٠٦

(٩٥) ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ٢٠١، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٢، ص ٤٨٧

(٩٦) العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٧، ابن الجوزي، المنتظم ج١٥، ص ٢٠٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج١٢، الورقة ٤٠ أ، ابن الأثير، الكامل ج٩، ص ٢٣١، ٣٦٩، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين) ، ص ٤٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٥٢، ابن خلدون، تاريخ ج٧، ص ٥٨٢، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٧٦

(٩٧) العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٨، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٥٣

(٩٨) انظر: العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٨، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٥٣، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ٢٠٠

وفي هذه الرسالة شرح وافٍ لما جرى، والعَميدي وإن كانت رسالته موجهة إلى صديق له، ليقف على حقيقة ما جرى[٩٩] فإنه يتحدث باسم الخليفة، يظهر هذه من مقدمته الطويلة في التحميد وشكر الله على نعمه الجزيلة من قبل أمير المؤمنين «ثمرةِ الشجرة الناضِرة، الأئمةِ الأخيار، الطاهرينَ الأبرار، الذين أذهَبَ اللهُ عنهم الرِّجْس، أهلَ البيت، وطهَّرهم تطهيراً». وهو يردّ بذلك على ما شاع من التشكيك بنسب الفاطميين[١٠٠]، ثم يعطف على بيان سبب هذه الرسالة وأهميتها في كونها تؤرخ لأيام جليلة يعتز بها الإسلام لأنها «نعمةٌ أيَّدت الدِّينَ بعدَما هَمَّ بُنيانُه بأن يتَزعزَع، وعَمَّدْته بعدَما أرادت أركانُه أن تَتضَعْضَع، وشَدَّت قُوَى المُلك بحبلٍ من عند الله وثيق، وشيَّدتْ بناءه بعدَما كادت تَزيغُ قلوبُ فريق، وحسَمت أطماعَ مَن دَلاّهُم بغرور، وحَكَمت لأنصارِ الحقّ بعُلوٍّ وظهور، وقَذَفَ في قلوب المُخالفينَ الرُّعبَ شرقاً وغرباً، وآمَنَ سِرْبَ الموالفين بُعْداً وقُرْباً، كالنِّعمة التي توّجَهَ اللهُ سبحانه لأمير المؤمنينَ بمَحاسنِها التي تقصرُ عنها بوارعُ الهمم والآمال، وخصَّه بميامنها التي تسيرُ بها سوائرُ السِّيَرِ والأمثال، وخارَ له من أقسام السَّعادة ما رَغِمت له مَعاطسُ أُولي الشِّقاقِ والنِّفاق، وساقَ إليه من أحكام الجلالة ما اشتُهر ذكْرُه في الآفاق، وأغمد صَوارمَ عبيده وأوليائه، في مَفارقِ مُباينيه وأعدائه، الذين جَحَدوا الإحسان، وعبَدوا الشّيطان، وامتطَوا مراكبَ الغَدْر فاستطالوا، وهَمُّوا بما لم ينالوا، وأظهر من جميل صُنعِه فيه ما كان مطويّاً، وذلَّل من رقابِ النَّصر للمعلنينَ بشعاره ما كانِ أبيّاً، وجعل ما يَسَّره له من الفتح، وقدَّره من النُّجح، آيةً للناس ورحمةً منه وكان أمراً

(٩٩) العميدي، الرسائل ص ٣٢٠

(١٠٠) حيث صدر في بغداد سنة ٤٠٢هـ محضر القدح والطعن في نسب العلويين الفاطميين بمصر، ووقَّع عليه الأشراف والقضاة والفقهاء، وشاع ذكره بين الناس. انظر نص الكتاب عند: ابن الجوزي، المنتظم ج٧، ص ٢٥٥، ابن الأثير، الكامل ج٩، ص ٢٣٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٢٩، حمادة، الوثائق السياسية والإدارية ص ٩٣، الحباشنة، ديوان الإنشاء الفاطمي، ص ١٠٦

مقضِيّاً، فإنها نعمةٌ خرَّت لها جباهُ النّعم ساجدة، وَبنَت للمُلك فوق سَمْك السَّماء قاعدة»(١٠١).

ثم شرع العَميدي بشرح ظروف هزيمة ابن مرداس وابن الجراح، وذلك أن كتب نائب الخليفة بالشام «مملوك أمير المؤمنين المظفر» كانت تصل إلى القاهرة تعلم باجتماع كلمة من أسماهم بالطغاة المارقين والعتاة الفاسقين من اليمانية والقيسية(١٠٢) على الخلاف ومعاداة الدولة، وأنهم تحالفوا فيما بينهم على مقاتلة جيش الدولة، وجرى بمجلس الخليفة عرض أخبار ما اقترفوه في بلاد الشام من أفعال تقدم ذكرها جميعها في رسالتيه السابقتين (الأولى والثانية)، ومنها: إثارة الفتن والفساد وتخريب البلاد والمدن ومحاصرة الثغور والحصون ونهب ما فيها واستباحة أموال مالكيها وقطع الطريق وإخافة سالكيها، وتضليل الناس وإغرائهم حتى اجتمع لديهم من العدد والعدة الكثير.

ثم إن الخليفة «أمير المؤمنين» لما علم أن السكوت عليهم زادهم إصراراً على العناد والعدوان، وأن الكتب والرسائل لم تردعهم، اتجهت نيته إلى قطع دابرهم ومواجهتهم والقضاء عليهم.

ويفيدنا العَميدي أن الخليفة الظاهر لم يرسل أنوشتكين مباشرة في حملة القضاء على الخارجين، بل إنه عهد بالأمر أولاً لوزيره علي بن أحمد الجرجرائي (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، الذي لم يصرح باسمه وإنما وصفه بـ«الوَزير الأجلّ صفيَّه(١٠٣) وخاصّتَه، وهو السَّديدُ في مصارفِه، الحميدُ في مواقفِه، الذي يخدِمُه الإقبالُ مقترباً إليه، ويُعظِّمُه التوفيقُ واقفاً بين يدَيْه، لا يرُدُّ القَدَرُ صوائبَ سهامِه إذا سدَّدها ورماها، ولا يفُلُّ الزّمانُ سيوفَ اعتزامه إذا جرَّدها وانتضاها، ولا تَشُوبُ مُناجاتَهُ مداجاة، ولا تَشِينُ موالاتَه مراءاة، ولا يَعتافُه عن الجدِّ مقام، ولا يعتاصُ عليه مطلبٌ ومَرام ... واثقاً

(١٠١) العميدي، الرسائل ص ٣١٠ ـ ٣١١

(١٠٢) ينتسب صالح بن مرداس إلى قبيلة بني كلاب القيسية، والتي تتوزع قبائلها وبطونها بكثرة في بلاد الشام خاصة في حلب ونواحيها، أما حسان بن جراح الطائي وسنان بن عليان الكلبي فهما يمانية.

(١٠٣) لُقِّبَ الجرجرائي بـ «الوزير الأجل الأوحد صفي الدين». انظر: النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ٢٠٨

بأنه لا يَعجِزُ عن خَطْبٍ نُكولاً، ولا يهتمُّ بصعبِ الأرض ذَلولاً»(١٠٤)، وأمره بأن يستقرئ أخبار هؤلاء الخارجين على الدولة، وأن يتولى إرسال الجيوش لملاحقتهم وطلبهم حيثما كانوا والقضاء عليهم. وعلى هذا فقد أرسل الجرجرائي من القاهرة رجالاً لتنفيذ الأمر، وزودهم بالأموال أضعاف ما يحتاجونه.

وربما كان هذا التكليف للوزير ليرأس الحملة العسكرية لإعطائها أهمية أكبر وإظهار اهتمام الدولة الفاطمية المباشر، بالقضاء على تلك الحركات. كما إن إغداق العَميدي أوصاف التعظيم والتفخيم على الوزير يعبر عن رغبته بإظهار عظم شأنه عند الخليفة ومنزلته الكبيرة، وبالتالي إلقاء الرعب في قلوب مخالفيه.

ويبدو أن هذه الحملات لم تستطع حسم النتيجة، بل على العكس من ذلك فإن ابن العديم يشير إلى محاولة فاشلة للقضاء عليهما (ابن الجراح وابن مرداس) من خلال إرسال حملة عسكرية كثيفة العدد سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م بقيادة الدزبري نفسه لمقاتلة ابن الجراح فكسر الدزبري وهزم وعاد مفلولاً. وما يذكره العَميدي أنه تمت مكاتبة «الأمير المظفر» أنوشتكين الدزبري في شأنهم، وكان أنوشتكين يتولى نيابة دمشق للظاهر، ولاه إياها سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م(١٠٥). ويشير إلى أن أمر التكليف تضمن تخطيطاً وتوجيهاً لكيفية استدراجهم والإيقاع بهم، وضرورة الثبات في مقاتلتهم ومطاردتهم، وأن لا يكون القتال إلا بعد إنذارهم وتنبيهم «تأكيداً للحجة واتباعاً للسنة»(١٠٦). ولكي لا يؤخذ ذلك مأخذاً على الدولة. ويؤخذ من هذا أن كتب التكليف الصادرة من الديوان الفاطمي كانت تتضمن توجيهات الخليفة العسكرية، وبعض التخطيط ليلتزم به القادة. ولعل ذلك مما يعبر عن اهتمام شخصي ومباشر من الخلفاء أنفسهم، مما يعكس

(١٠٤) العميدي، الرسائل ص ٣١٣

(١٠٥) الصفدي، الوافي بالوفيات ج١٦، ص ٢٧٢، الصفدي، تحفة ذوي الألباب ج٢، ص ٢٩، النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ٢٠٦، وأرخ النويري نيابته على دمشق في سنة ٤١٧هـ ولعله تحريف.

(١٠٦) العميدي، الرسائل ص ٣١٤

أهمية تلك الحملات الموجهة إلى الخارجين على الدولة. وهذا من عناصر الخطاب السياسي الفاطمي تجاه المناوئين.

ويذكر المؤرخ الحلبي ابن العديم أن الظاهر لما سير العسكر بقيادة الدزبري ضم إليه رافع بن أبي الليل الكلبي، وجعله مقدماً على الكلبيين(١٠٧)، مما يعني أن الحلف الثلاثي قد تصدع بانشقاق قسم من اليمانية وهم الكلبيون ضد إخوانهم بني طئ.

ووفقاً لرواية العَميدي فإن الأمير أنوشتكين امتثل للأمر وأطاعه، وسار على مقتضى التوجيهات التي أرسلت له من ضرورة جمع الأخبار عن تحركاتهم فبلغه انضمامهم بنواحي طبرية في موضع يسمى الأقحوانة الصغرى(١٠٨) شرقي نهر الأردن، فتوجه أنوشتكين بعساكره نحوهم، وانتهز الفرصة لمقاتلتهم قبل أن تتفرق جموعهم، فلم يمض كبير وقت حتى وصلوا إلى غربي شاطئ نهر الأردن، وتوقعوا أن النهر يمكن أن يشكل عائقاً دون وصول عسكر أنوشتكين إليهم، لكن الجيش عبر من خلال مشرع الحسينية، والتقوا هناك بطلائع مقاتلي ابن مرداس وحسان فبادرتهم جنود أنوشتكين بالاقتناص وتفاجأوا بكثرة جيشه ورأوا «رجالَ الدَّوْلَة مُستظِلّينَ بظلال الألويةِ الخافقة بالنَّصْر والإظهار، والرايات الناطقةَ بالغَلَبة والاقتدار، والبنودِ الهاتكة لأستارِ أُولي الغَدْر والخَتْر، والجنودَ المالكةَ لرِقاب أهل البَدْو والحَضَر، وشاهدوا فرسانَ العربِ وشُجعانَها»(١٠٩)، ويريد العَميدي بذلك إظهار شرعية الدولة، وقوة الجيش؛ فدارت بين الطرفين رحى المعركة التي يصفها العَميدي

---

(١٠٧) ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ٢٠٠

(١٠٨) سماها العميدي: «الأقحوانة الصغرى»، ولا يوجد غيرها من تسمى الإقحوانة سوى موضع آخر في الحجاز بنواحي مكة، وأقحوانة الشام هي ضيعة على شاطئ طبرية قرب عقبة فيق، وحدد العميدي موضعها في شرقي النهر. انظر عنها: البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٢مج، ج١، ص ١٧٩، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٢٣٤، ياقوت، المشترك وضعا والمفترق صقعا، ص ٢٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٢، ص ٤٨٨، صفي الدين البغدادي، مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع، ج١، ص ١٠٣

(١٠٩) العميدي، الرسائل، ص ٣١٦ ـ ٣١٧

بأوصاف ملحمية، إذ «تقاطَرت عليهمُ السِّهام، رُسُلُ الحِمام، مُقصِدةً وقاصدة، ونابت السيوفُ عن نُوَب الأيام، راصدةً وحاصدة، وبقيت النفوسُ طائرة، والأحلام قائمةً وقاعدة، وتدَحرجت حيث الرؤوسُ تحت الأقدام هابطةٌ وصاعدة، واكتَسَت السَّماء من ملابس القَتام ثيابَ الحِداد، وثَبَتَ أنصارُ الدِّين وأشياعُ الحقّ ثباتَ أطواد، وطفِقت سوابقُ الخيل تعثُرُ في حِجَالِها، بين أولئك القتلى بأعناقٍ ناتئةٍ من الكواهل، وأيدٍ نابيةٍ من البَآدِل، وصُمَّت الأسماعُ من صَليل المناصل، وذَبُلت النفوسُ من السُّمر الذّوابل، فما انقَشعِت تلك الهَبْوة، ولا انحسَرَت تلك الغَبْرة، حتى تحكَّمت البواترُ في مفارِقِهم، وتفحَّمت الفواقرُ والدوائرُ على مُبايِنِهم عن الطاعة ومُفارِقِهم»(١١٠)، ووصف العَميدي هذا يوافق ما ذكره ابن تغري بردي من أن ما جرى بين الطرفين كان «ملحمة هائلة»(١١١). وكانت نتيجة المعركة ـ بخلاف القتلى الذين سقطوا ـ مقتل ابن مرداس: «وطُعِن الشَّقيُّ ابنُ الدَّوْقَليّة(١١٢) وقد أتتْه بالحَيْن رِجْلاه، ونسِي ما قدَّمت يداه، طعنةً نجلاءَ أشرقَ منها بدمِه، وخَرَّ صَريعاً ليَدَيْه وفمِه، وحُزَّ رأسُه من ساعتِه فأصبح مُقَوَّراً بعدَما كان مُكَوَّراً، وأضحَى مهشَّماً، عقِبَ أنْ كان مُعَمّماً»(١١٣)، طعنه طريف الفزاري فسقط عن فرسه ولم يمت، فرآه رافع بن أبي الليل الكلبي فعرفه وأجهز عليه وقطع رأسه وحمله إلى الدزبري(١١٤).

---

(١١٠) العميدي، الرسائل، ص ٣١٧ ـ ٣١٨

(١١١) انظر: النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٥٣

(١١٢) هكذا ورد في المطبوع، وفي نسخة أخرى من نسخه: ابن الذوقلية، وفي مخطوطة مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ج١٢، الورقة ٥٧ب: الروقلية. ولعل الصواب: ابن الزوقيلة نسبة لأمه الرباب الزوقلية من ولد زوقل بن حبيط بن قُدَامَة بن عَبْد الله بن عَامِر بن حصين، والزوقليه هي أم صالح بن مِرْدَاس الكِلابِيّ أمير حَلَب. انظر: ابن العديم، بغية الطلب ج١، ص ٥٤٥

(١١٣) العميدي، الرسائل ص ٣١٨

(١١٤) ابن القلانسي، تاريخ ص ٧٣، ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٥٣، ابن العديم، زبدة الحلب ج١، ص ٢٠١، والداوداري، كنز الدرر ص ٣٢٦، ويذكر ابن تغري بردي أن الدزبري أرسل برأس صالح إلى الظاهر بمصر. انظر: النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٥٣.

ويستكمل العَميدي شرحه لوقائع المعركة ونتائجها، فيستطرد: أما ابن جراح فقد هرب من أرض المعركة «وهام الغادرُ الخاسرُ جَرّاحٌ على وجهِه يبتغي النَّجاةَ برأسِه، وأنّى له النجاةُ وقلبُه مرعوبٌ منكوب، والشّقاءُ عليه مصبوب، والغدرُ بجبينِه معصوب، والفَناءُ عليه مكتوب»(١١٥)، كما هرب بقية أتباعهما، وقدّر العَميدي عدد من سلم منهم وتمكن من الهرب بالعدد القليل، وغنم جيش أنوشتكين الكثير من الأموال والكُراع والأسلحة والمتاع والعُدد والعتاد، أما من لم يتمكن من الهرب من أتباع ابن مرداس وحسان فكانوا بين قتلى وجرحى في أرض المعركة أو أسرى مقيدين بالأغلال، وقد وصفهم بأنهم «أولياءِ الشيطان، وأغبياءِ الرّعيان، العادلينَ عن الطاعة والناكبين، والناقضينَ للعهد الناكثين»، «الفَسَقة ... المَرَدة المَرَقة»(١١٦).

وختم الرسالة بعبارات الحمد لله وشكره على إحراز النصر الذي «جعلَ مُلكَ أميرِ المؤمنينَ معقوداً بحبلٍ لا تُحَلُّ مغارُّه، وحريمَه محروساً بسيفٍ لا يُفَلُّ غرارُه، وأدام عزَّه مؤيَّداً، وجلالَه مؤبَّداً، ونَصْرَه مجدَّداً، وسُلْطانَه ممهَّداً، والبشاراتِ بحضرتِه متناصرة، والمسَرَّات في أيامِه مُتواترة، ومدَّ على أكنافِ مملكتِه، وأطرافِ حَوْزتِه، ظلالَ الأمن، ورِواق اليُمن، وأعاد عليها مناظمَ العدل والاستقامة، وألّفَ على طاعتِه قلوبَ الخاصّة والعامّة، وأكسَبَه بعالي الرغبة في توفيقه لِما تُحمَدُ عواقبُه، وإيزاعِه لِما تُستدامُ به نِعَمُه عنده ومواهبُه»(١١٧).

وهذا من أساسيات الخطاب السياسي الفاطمي الموجه للخارجين، حيث إن عبارات الحمد والشكر على إحراز النصر تقوي من عزيمة جنود الدولة، وترخي من عزيمة الأعداء، كما تؤدي إلى إقناع الناس بانتصار الدولة، وأن الخارجين عليها لا يمثلون أي أهمية أو خطر.

---

(١١٥) العميدي، الرسائل ص ٣١٩، وانظر عن خبر هزيمة حسان وقومه: ابن بطريق، التاريخ المجموع، ج٢، ص ٢٥٣

(١١٦) العميدي، الرسائل ص ٣٢٠

(١١٧) المصدر نفسه ص ٣٢٠

وذكر ابن تغري بردي قيام الدزبري بإرسال كتاب إلى الخليفة الظاهر بمصر يبشره بالنصر ويخبره بمجريات المعركة(١١٨). ويعضد هذا ما ذكره العَميدي من كون «البشارات بحضرته متناصرة»، وأورد سبط ابن الجوزي مضمون كتاب أرسله أنوشتكين إلى الخليفة يخبره فيه بالنصر، ونصُّه: «إلى سيدنا ومولانا، وكان قد عرف اصطناع الدولة لآل الجراح ومقابلتهم إحسانها بسوء الاجتراح، وكان أخلقهم بالشكر ـ لما وليه ـ حسَّان، وأحقهم بالكف عن الإساءة إذ لم يكن منه في الطاعة إحسان، ولكن أبى إلا طبعه اللئيم ومعتقده الذميم وكم له من غدرة في الدين واضحة، ومرزية في أموال المستضعفين فادحة، وأمَّا صالح بن مرداس زَعيم بَني كِلاب فإنَّه اتَّفق مع حسَّان مُدلاًّ بحَدِّه وحديده، مُجلباً على الدولة بعد إحسانها إليه بعَدِّه وعَديده، فتوامرا على الفَساد، وتوازرا على العناد ونَهب البلاد، وكان صالح أشدَّهما كُفراً، وأعظمهما أمراً ومَكراً، ووافى الملعونان الأقحوانة الصغرى عند شاطئ نهر الأردن ووقعت الحرب، واشتدَّت بالطعن والضرب، فانهزم حسَّان مَفلولاً والعاقبة للمُتَّقين، ومَن أصدق مِن الله قِيلاً، وأمَّا الخائن صالح، فلم يَزل يُواصل الحَملات حتَّى أتعس الله جِدَّه، وأخذ سيف الله منه حَدَّه، فخَرَّ صريعاً قد أزهق الله نفسه، وأخبث مَغرسه، وغَنِم المُجاهدون سيفه وفرسه. وقد نفذ إلى الحضرة رأسه، وقُتِل عامَّة أصحابه مِمَّن كَفر النعمة وفجر، ولم يُقتَل مِن الأولياء التامّين عليه غير ثلاثة نَفر»(١١٩).

الرسالة الرابعة: منشور شكر لأهل دمشق على صبرهم وجدِّهم في مقاتلة الخارجين على الدولة

خصّ العَميدي أهل دمشق دون غيرهم من أهالي الشام برسالة شكر ومديح لموقفهم في أثناء الأحداث التي حدثت في بلاد الشام، فما هي الدواعي لذلك ولماذا خصوا به دون سواهم؟

تقدمت الإشارة إلى أن دمشق وما يجاورها كانت إحدى النواحي التي اتفق أصحاب الحلف الثلاثي (صالح – حسان – سنان) على

(١١٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٤، ص ٢٥٣

(١١٩) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج١٢، ورقة ٥٧ ب ـ ٥٨ أ

امتلاكها من يد الفاطميين، وكانت من نصيب سنان بن عليان بن البناء الكلبي، ويروي لنا المقريزي تفاصيل محاولة سنان الاستيلاء على دمشق، ذلك أن سنان حاول بمعونة صالح بن مرداس ومن معهم من العرب إخضاع دمشق لسيطرته، فحاصروها ونهبوا قرى دمشق من الغوطة وسائر السواد، وقتلوا فلاحي الضياع ونهبوا أموالها، وحاول أهالي دمشق مواجهتهم واجتمعوا بوالي دمشق الفاطمي ذي القرنين ابن حمدان، وقرروا أن يتناوبوا على صدهم ومقاتلتهم، يوماً يدافع عن دمشق أهلها وسكانها، ويوماً يدافع عنها جيش الدولة. واستمرت الحال على ذلك دون جدوى، ووقع من الطرفين قتلى كثر، وبعث حسان بن الجراح مدداً لمساندة سنان، «وكان الشام بأسره قد اضطربت أحواله. وتغلبت العربان على البلاد، ونهبوا عامة أموال أهلها»(١٢٠)، وكان قوام السرية التي أرسلها حسان نحو ثلاثة آلاف فارس، فطلب سنان من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار يدفعونها حتى يتوقف عن قتالهم، لكن القاضي الشريف أبو يعلى فخر الدولة ابن أبي الجن منعهم من ذلك، وارتأى أن ينفق هذا المبلغ على تجهيز المقاتلة ومواصلة القتال فوافقوه على ذلك، واستمر القتال فقتل من العرب نحو المائتي فارس وأصيب سنان الكلبي بسهم، فطلب الصلح وترك الحرب أربعين يوماً، وتم عقد الصلح بينهما(١٢١). ثم إن سنان الكلبي نقض عهده مع أهل دمشق وعاود قتالهم، لكنه اضطر إلى طلب الصلح مرة أخرى، وحاول سنان محاصرة دمشق مرة ثالثة فيما بعد واشتد القتال بينه وبين أهلها، وعجز عن دخولها وإخضاعها لسيطرته، واستمر على ذلك حتى توفي في جمادى الآخرة سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م(١٢٢). فخلفه ابن أخيه رافع الذي قدم إلى الخليفة الظاهر فأكرمه وأقطعه، وأصبح قومه بنو كلب إلى جانب الخليفة الظاهر ضد ابن

(١٢٠) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٥٦، وانظر عن محاولة سنان السيطرة على دمشق: ابن بطريق، التاريخ المجموع ج٢، ص ٢٤٨، العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٧، النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ٢٠٥

(١٢١) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢، ص ١٥٧، وانظر: النويري، نهاية الأرب ج٢٨، ص ٢٠٥

(١٢٢) العظيمي، تاريخ حلب ص ٣٢٨

مرداس وابن الجراح، وتقدمت الإشارة إلى دورهم ومساهمتهم في هزيمة ابن مرداس والطائي في الأقحوانة.

ويظهر من سيرة أهل دمشق في هذه الأحداث صمود حقيقي ضد الخارجين على الدولة من القبائل العربية، (خاصة قبيلة كلب)، وأنهم برغم الأذى والتخريب الذي لحق بهم وبضياعهم وأموالهم تكاتفوا على المقاومة، بما استوجب معه تقديم الشكر لهم من الدولة على هذا الموقف.

وعلى الرغم من الخلافات المذهبية بين أهل دمشق السنة، والفاطميين الإسماعيلية، إلا أن الفاطميين حاولوا بكل السبل إيجاد نوع من التفاهم والاتفاق بين أتباع المذهبين(١٢٣).

يبدأ العَميدي رسالته بالإشارة إلى موجبات شكر أهل دمشق، لأنهم «رعيّةٌ حسُنت في الإخلاص أسرارُهم وسرائرُهم، وسَلِمت من الانتقاضِ أبصارُهم وبصائرُهم، وأُحمِدت في المُشايعة والولاءِ عقودُهم وعقائدُهم، وشهِدت بالثقة والوفاءِ عهودُهم ومعاهدُهم، وتثبتَّت على مواقفِ الحقِّ أقدامُهم، وأنبأَ عن صَحائفِ الصِّدق إقدامُهم»(١٢٤). فأهل دمشق تناصروا في المحاماة والدفاع عن مدينتهم أكثر من مرة، حتى نالوا بذلك رضى الدولة الفاطمية وأصبحوا «لأولياء الدَّوْلَة المنصورة أنصاراً وأعواناً»(١٢٥)، ونالوا أيضاً رضى الخليفة «أمير المؤمنين»، واعتداده بهم وأن ثمرة مواقفهم هذه سيلمسونها قريباً وتظهر آثارها على أحوالهم عاجلاً(١٢٦).

وهذا يظهر بوضوح موقف الدمشقيين المساند للدولة في ذلك الصراع، وما سينتج عنه من حسن الجزاء على ذلك.

ويذكر العَميدي ما أصاب دمشق وأهلها خلال تلك السنوات والأحداث التي تعرضت لها، وأن هذه الأحوال القاسية جرى تدارسها واستعراضها بمحضر الخليفة « ولقد تُصوِّر بحضرتِه ما دَهَمكم من

---

(١٢٣) انظر: محاسنة، تاريخ مدينة دمشق، ص١٢٠.

(١٢٤) العميدي، الرسائل ص ٣٧٠

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٧١

(١٢٦) العميدي، الرسائل، ص ٣٧٢

الـمِحنة التي هَدَمت بُناكم، وفصَمَتْ عُراكم، وأضعَفَتْ قُواكم، وعظَّمت بَلْواكم، وحَلّت حِماكم، وعَلِمَ علماً يقيناً لا يتعرّضُ الرَّيبُ ليقينِه، ولا يعترضُ النقْصُ على براهينِه، ما جرى عليكم من مُنازِعي الحقّ وأعداءِ الدَّوْلَة، ومُنابذي الصِّدق ومُخالفي الملّة، حين تحالَفوا على مُنازلتِكم، وتوافَقوا على مُقاتلتِكم، وما استَحلّوه من تخريبِ الضِّياع والعقار، وقَطْع الأشجارِ وقَلْع الثِّمارِ وهَتْكِ الأستار، وإجلاءِ الضُّعفاءِ من مساكنِهم، وإخلاءِ منازلِـهم وأماكنِهم، وهَدْم المباني...»[١٢٧]. وكانت نتيجة محاماة أهل دمشق ودفاعهم عن مدينتهم أن هرب عنها المهاجمون وتفرقوا.

ويختم رسالته بتوجيه أهل دمشق لتقدير النعمة التي هم فيها بعد أن انكشفت عنهم تلك المحنة، وأن يكونوا عند حسن ظن الخليفة وثقته بهم، وما يعتقده من الإخلاص فيهم، وأن الخليفة ـ كفاء ما قدموا ـ عازم على أن يزيل عنهم آثار تلك المحنة، ويعوضهم عما أصابهم، ويزيل همومهم «ويعيدُ بلدَكم إلى أحسنِ ما كان عليه عِمارةً وحُسناً، ويُبدِلُكم بتوفيق الله من بعدِ الخوفِ أمناً»[١٢٨]. وهي من سياسة الترغيب، المناقضة لسياسة الترهيب.

وفي هذه الرسالة خطاب لأهل دمشق يحاول تقريبهم إلى الدولة، وإبعادهم عن الخارجين، ويظهر لهم مغبة اتباعهم، وخطورة ما يحيق بهم إن هم ظلوا يتبعون تلك الزعامات، وأن مصلحتهم مع الدولة وموالاتها لا الخروج عليها.

نتائج البحث

بعد دراسة رسائل العَميدي الخاصة بالخطاب السياسي الفاطمي الموجه إلى الزعامات المحلية الشامية المعارضة نستنتج عدة حقائق تاريخية، وهي:

---

(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٧٢

(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٧٣

١- تفرّد كتاب (رسائل العَميدي) بمادة تاريخية جديدة، تفيد البحث التاريخي بالنسبة للفاطميين. وهي لم ترد في أي مصدر تاريخي معروف.

٢- يعبر العَميدي بصفته كاتباً رسمياً في ديوان الإنشاء عن سياسة الدولة ونظرتها للحركات المسلحة التي كان يقوم بها الزعماء المحليون في بلاد الشام.

٣- كانت رسائل العَميدي دعاية إعلامية لكل من يطلع عليها تمثل وجهة النظر الرسمية للدولة الفاطمية.

٤- وجود مراسلات وقنوات اتصال بين الدولة الفاطمية والخارجين عليها تمهد السبيل لاحتواء الأزمات وتجاوز أسباب العداء.

٥- لم تنظر الدولة الفاطمية للحركات المسلحة التي قام بها أولئك الزعماء إلا من منظار الخروج على طاعة أولي الأمر والعبث بالأمن.

٦- تظهر من رسائل العَميدي نبرة معبرة عن نظرية الحق الإلهي في الحكم، وأن الخليفة هو الإمام الواجب الطاعة، وأنه ظل الله في الأرض.

٧- اتبعت الدولة الفاطمية سياسة مع الزعماء الخارجين عليها في الشام، تتراوح بين الترغيب والترهيب، والإنذار والتحذير، والوعد بالمسامحة إن هم تابوا وأنابوا.

٨- يقترب العَميدي في الواقع التاريخي مع المصادر المعاصرة، لكنه يعبر عن رأي الدولة. لذا، يختلف حكمه على تلك الحركات مع كثير من المؤرخين.

٩- يتحاشى العَميدي إظهار ضعف الدولة وهزيمتها، وهذا ينسجم مع كونه كاتباً رسمياً في ديوان الدولة.

١٠- كانت الدولة مدركة لأهداف تلك الحركات المسلحة، ولذلك كانت تعرف كيف تخاطب زعماءها حرباً وسلماً، وكيف تعبر عن ذلك الصراع.

١١- بما أن بعض زعماء تلك الحركات المسلحة كانوا من الشيعة وهو مذهب الدولة الفاطمية، إلا أن النزاع القائم لم يتخذ منحى طائفياً، وإنما كان أقرب للشعور القبلي العصبي.

١٢- يصور العَميدي تلك الحركات على أنها غير منظمة، ويتبعها الأعراب الذين يصفهم دائماً بالغوغاء.

١٣- من خلال رسائل العَميدي يظهر الهدف الرئيس للحركات المسلحة الخارجة على الدولة على أنه شخصي مصلحي مادي.

١٤- يحاول العَميدي في خطابه الموجه للخارجين على الدولة أن يكون مقنعاً، منطقياً، هادئاً، متزناً؛ كي يجعل خطابه متقبلاً، إن لم يكن من الزعماء، فمن الأتباع على أقل تقدير.

١٥- من أهداف الخطاب السياسي الفاطمي كما يظهر من رسائل العَميدي إظهار الأثر السلبي لتلك الحركات المسلحة، مما يؤدي إلى استثارة الناس وإنكارهم على الزعماء المحليين.

١٦- من عناصر الخطاب السياسي الفاطمي شرح الخطط العسكرية لردع الخارجين وإشعارهم بقوة الدولة.

المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات

[١] سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن عبد الله(ت٦٥٤هـ)، مرآة الزمان، مخطوط محفوظ بمكتبة السلطان أحمد الثالث/ إستانبول برقم (٢/ ٢٩٠٧).

ثانيا: المصادر

[٢] ابن الأثير، علي بن محمد الجزريّ (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، الكامل في التَّاريخ، ط٧، بيروت، دار صادر، ٢٠٠٥م.

[٣] الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، تاريخ الأنطاكي، «الملحق بتاريخ ابن البطريق»، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٩م

[٤] ابن بطريق، البطريرك افتيشيوس المكنى «سعيد» (ت ٣٢٠هـ/ ٩٤٠م)، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٩م.

[٥] ابن بكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، (تحقيق) مصطفى السقا، ٢مج، عالم الكتب، بيروت (د.ت).
[٦] ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٧٢م.
[٧] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم [تحقيق] محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، [مراجعة] نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢- ١٩٩٣م.
[٨] ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٦م.
[٩] ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، [تحقيق] إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م.
[١٠] الداوداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)، كنز الدرر وجامع الغرر «الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية»، [تحقيق] صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٦١م.
[١١] الزركلي، خير الدين بن محمود الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، الأعلام «قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين»، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
[١٢] ابن الساعي، على بن أنجب البغدادي (ت ٦٧٤هـ)، الدرّ الثمين في أسماء المصنفين، [تحقيق] أحمد شوقي بنبين، الخزانة الحسنية، الرباط، ٢٠٠٧م.
[١٣] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، [تحقيق] محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر، ١٩٧٩م.

- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت ٦٨٤هـ)
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين)، [تحقيق] سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢م.

[١٤] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)
- تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، [تحقيق] إحسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان الصمصام، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م.
- الوافي بالوفيات، المعهد الألماني للبحوث، بيروت، ١٩٧٠ - ٢٠٠٣م.
- صفي الدين البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ)
- مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع [تحقيق] علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٥٤م.

[١٥] الطهراني، آغا بزرك(ت ١٣٨٩هـ)، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ط٢، (د.م)، (١٣٨٩هـ).

[١٦] ابن ظافر الأزدي، علي بن منصور (ت ٦١٣هـ/ ١٢١٦م)، أخبار الدول المنقطعة، [تحقيق] عصام هزايمة وآخرين، مؤسسة حمادة ودار الكندي، إربد، ١٩٩٩م.

[١٧] ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م
- بغية الطلب في تاريخ حلب، [تحقيق] سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، (د.ت).
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، [تحقيق] سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق القاهرة، ١٩٩٧م.

[١٨] العظيمي، محمد بن علي الحلبي (ت ٥٥٦هـ/ ١١٦١م)، تاريخ حلب، [تحقيق] إبراهيم زعرور، دمشق، (د.ن)، ١٩٨٤م.

[١٩] العميدي، محمد بن أحمد بن محمد الكاتب (ت ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م)، رسائل العميدي، [تحقيق] إحسان ذنون الثامري، جامعة الملك سعود (كرسي الدكتور عبد العزيز المانع)، الرياض، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

[٢٠] أبو الفداء، إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، اليواقيت والضرب في تاريخ حلب، [تحقيق] محمد كمال، فالح البكور، دار القلم العربي، حلب، ١٩٨٩م.
[٢١] القفطي، علي بن يوسف بن إبراهيم (ت ٦٤٦هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
[٢٢] القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ)، تاريخ ابن القلانسي، المعروف بذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.
[٢٣] القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٥م.
[٢٤] المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، [تحقيق] محمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، [تحقيق] أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٥م
[٢٥] النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، [تحقيق] مجموعة من المحققين، المجلس الأعلى للثقافة والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٤م.
[٢٦] ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)
- المشترك وضعا والمفترق صقعا، ألمانيا، جوتنجن، ١٨٤٦م.
- معجم الأدباء، أو: (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت).

ثالثا: المراجع

[٢٧] الأحمدي، خلود، القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية / دراسة في الحياة الاجتماعية، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ٢٠١٠م

[٢٨] الحباشنة، سمير عبد الوهاب، ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية (٣٥٨ ـ ٥٦٨هـ/ ٩٦٨ ـ ١١٠٢م)، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، بإشراف الأستاذ الدكتور سمير الدروبي، جامعة مؤتة، ٢٠٠٧م.
[٢٩] حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.
[٣٠] ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي «العصر العباسي الأول»، ط١٦، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٤م.
[٣١] عنان، محمد عبد الله، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٣م.
[٣٢] ماجد، عبد المنعم، السجلات المستنصرية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).
[٣٣] محاسنة، محمد حسين، تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠١م.

The Political Address of the Fatimid State Towards Local Sham (Syrian) Leaders of Resistance as Shown in Al-Ameedi's Letters (died in 1042AD/433H) A Study in Historical Methodology

Dr. Kholoud Al-Ahmadi
Professor Assistant Of Islamic History at Taibah University

Abstract. The study aims at discovering the historical indications and documentary information which some of Al-Ameedi's letters, which were issued by the Fatimid Caliph's Court, in the period when Al-Ameedi performed his Court jobs in the early fifth (eleventh AD.) century. These letters were sent to the leaders who had dominated the State's borderlands. The article also tries to employ these documentaries in the study of history.

The letters are unique, and are being published for the first time. They have not been mentioned in any other source to show how the Fatimid State dealt with those rebelling leaders, in addition to what the caliph did in order to win the rebelling leaders' loyalty including his concession of some of their leaderships, and bestowing gifts and donations on them. Then the article shows the actions which the state took against these rebels especially the military forays which were sent against them. The letters also present the history of the different events in Sham parts of the Fatimid State, in addition to the effects of these wars on the destruction of buildings, forcing people to leave their homes, and the lack of security and order especially on roads.

The study confirms the importance of Al-Ameedi's letters and their historical value as they present highly significant primary data about the importance of the political relations which connected the Fatimid Caliphs and some Sham Tribal leaders in the beginning of the fifth (eleventh AD) century.

Keywords: political address, Fatimid State in Al-Sham, Sham tribes, Tri-Tribal union, Al-Ameedi's letters